

فنون الأذب العربي

الفن الغنائي

٢

السرّاء

بقلم

الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف



الزَّمان

فتون الأدب العربي

الفن الغنائي

٢

الزَّماو

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا ، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة ، وهو بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان ، ووجد أمامه هذا المصير الحزن : مصير الموت والفناء الذي لا بد أن يصير إليه ، فيصبح أثراً بعد عين ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

ولكل أمة مراثيها ، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي ، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة ، هي النذب والتأبين والعزاء . أما النذب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتفجع ، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه ، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه ، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح اللبيع ، فيبكي بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار يث فيها لوعة قلبه وحرقة . وقد ينظر فيرى الموت مطلاً نضب عينيه ، وهو ينحدر راغماً إلى حفرة ، ولا ناصر له ولا معين ، ويصيح ولا ينفعه صياحه ، فتمّ الهاوية يقترب منه ويوشك أن يلتقمه ، فيبكي ويلحن بكاءه على قبارة شعره تلحيناً مشجياً كله آلام وحسرات .

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضاً من يتزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم ، ومراثي الشيعة من خير الأمثلة التي تصور ذلك ، إذ نجدهم يرسلون الدمع مندراً كأنه لا يريد أن يجف ، وتسيل كلماتهم وأشعارهم الحزونة ، وكأنها تسيل من جروح لا ترقأ في القلوب والأفئدة . ومثل مراثي الشيعة مراثي الدول ومراثي الأوطان حين تسقط مهيضة

الجناح في يد الأعداء ، فينوح عليها الشعراء مصورين محنتها الكبرى وكارثتها العظمى .

وليس التأين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ ينجّر نجم لامع من سماء المجتمع ، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية ، وكأنهم يريدون أن يصبوا وخسارة الناس فيه . ومن هنا كان التأين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي ، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلجّ في هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفرّاً حتى لا تُنسى على مر الزمن .

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأين ، إذ ترى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصدددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة . وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة ، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود . ويردُّ هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم . عبارة يردددها الشاعر الجاهلي ويحللها الشاعر العباسي ، وما يزال الشعراء يحلّلون فيها متحدثين عن الخلود أو عن الفناء .

وتلك هي ألوان الرثاء في شعرنا حاولنا أن نصورها وأن نضم بديتها إلى نهاياتها في خط طويل من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث . ولم تعرض ذلك في تفصيل ، وإنما عرضناه عرضاً مختصراً بقدر ما تسمح به حلقة قصيرة في هذه السلسلة التي نتحدث في إيجاز عن فنون شعرنا الغنائي ، والله الهادي إلى التوفيق .

القاهرة في ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٥

شوقي ضيف

تصنيف

١

الرثاء في أدبنا العربي

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي ، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مثنّين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصير محتوم .

والصور التي بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية ، إذ تراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم ، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى . ولكن هذه التعبيرات لا نجد لها في الشعر الجاهلي ، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى ، وانتهى إلى مرحلة فنية راقية .

ولا نرتاب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت في مرقد ، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشر ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قبيل الموت ، ومحاولة ذكرهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم ، مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه ، وعيشه بهم ولعيبه بحياتهم وموتهم .

وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقبال والأذواء في اليمن والأمرء في الحيرة وعند الغساسنة في الشام ، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيذاً لأعمالهم ، وكأن هذه هي الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت ، على أنها صورة ساذجة . أما الصورة الجاهلية للتأبين فصورة معقدة ، لا بما فيها من طول فحسب ، بل بما فيها

أيضاً من وسائل فنية كثيرة ، إذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثائهم وصيغته وينوعونها تنوعاً واسعاً ، كما نجدهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم ، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملاءمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفئدتهم .

وكان يساهم في هذا الفن النساء والرجال ، بل ربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه ، إذ كنَّ هن اللاتي يَقُصْنَ على نذب الميت أياماً ، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات ، وكنَّ يَحْلِقْنَ شعورهن ويلطمنن خلودهن بأيديهن وبالنعال والخلود أحياناً . وقد يقمن بذلك في مجالس القبيلة وعلى القبور وفي المواسم العظام كموسم عسكاظ .

وطبيعي أن يتفوق النساء على الرجال في نذب الموتى والنواح عليهم ، لأن المرأة أدق حساً وأرق شعوراً ، وأيضاً فإن حياة الرجال في العصر الجاهلي كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء ، بل لقد ذهبوا يظهرن التجلد والصبر على من يموت منهم ، يقول عمرو بن معد يكرب :

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي حَازِمٍ بَوَّأَتْهُ يَدِي لَخْدًا
أَعْرَضْتُ عَنْ تَذْكَارِهِ وَخَلَقْتُ يَوْمَ خَلَقْتُ جَلْدًا

على أن الرجال لم يكونوا جميعاً مثل ابن معد يكرب ، فوراءه كثيرون كانوا يتذبون وينوحون ، وخاصة على أبنائهم وأفلاد أكبادهم .
وتدبُّ الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى في الرثاء الجاهلي . ونجد بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأبين الميت وعَدِّ فضائله والثناء على خصاله والإشادة بصفاته . وتكثر هذه الصورة في تأبين الأصدقاء والأشراف ، بل قد نجد لها في رثاء الإخوة . وربما كان السبب في ظهورها ثم شيوعها أن كثيراً ممن كانوا يرثونهم كانوا يُقْتَلُونَ في حروبهم الدائرة ، فأرادوا أن يبينوا عِظَمَ المصيبة والخسارة بفقدهم . وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر

على نواثب الدهر وحيداً ثانه ، فالدنيا دار فراق لا دار خلود وبقاء ، وكل نفس فيها ذائقة الموت ، فالموت حوض يردّه الجميع ، وليس أمام الناس إلا الاستسلام للأقدار وما يأتي به القضاء .

ولما انتهت دولة المناذرة في الحيرة وثوها ، واستخرجوا منها العيبر والعظاات على أن كل ما في الدنيا زائل وأن البكاء لا يردّ هالكاهلك ولا ميتا مات . فالأقدار بيدها كينانها وقوسها ، ولا تزال ترمي بالسهم الأفراد والجماعات والقبائل والدولات .

وهذه الصور الجاهلية للرثاء استمرت في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة ، تارة تنمو وتارة تتطور ، تحت تأثير نموّ العقل العربي من جهة ، وتطور حياة العرب واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية ، ولكنها في جماتها تترد إلى هذه الصور الجاهلية ، وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصوله .

٢

في الآداب العالمية

الرثاء يقترن بالموت ، وليس في العالم أمة لم تعرف الرثاء كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت ، فالرثاء وجد عند كل الأمم والشعوب بادية وراقية متحضرة . ونحن نجد صوراً مبثوثة منه في الأدب الفرعوني القديم ، تارة منفصلة ، وتارة متصلة ببعض القصص كقصة الآلهة : أوزيريس وسيت وإيزيس ، فإنه حين اعتدى سيت على أخيه أوزيريس وقطعه لربّاً ، وألقى به في صندوق باليم بكته إيزيس أخته وزوجته بكاء حاراً ، وكان المصريون ييكونه معها في أعياده من كل غام . ولا ريب في أن ما نراه الآن في المآتم المصرية من « تعداد » النساء ولطمهن وتلطبخ وجوههن ورءوسهن بالطين يرجع إلى أقدم العصور ، ونفس تقاليدنا في الاحتفال بالموتى والعزاء فيهم ، كل ذلك فيه آثار من آباءنا الأولين .

وللرثاء مكان بارز في الشعر اليوناني القديم ، إذ اشتهر به شعراء مختلفون مثل أرخيلوكوس وسافو وسيمونيدس ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن كلمة « إليجي » *Elegy* اليونانية التي تطلق عند الغربيين المحدثين على المراثية لم تكن تطلق هذا الإطلاق الحديث عند اليونان ، بل كانت تطلق على وزن خاص من أوزان الشعر الغنائي ، وقد يكون موضوعها سياسة أو أخلاقاً أو غير ذلك من موضوعات . على كل حال عرف اليونان القدماء الرثاء وشاع عندهم ، ونقله عنهم الرومان بين ما نقلوه من فنون شعرهم وألوانه المختلفة .

ومعروف أن الأدب الغربي الحديث احتذى الأمثلة اليونانية والرومانية ، ومن هنا شاع فيه الرثاء على نحو ما شاع عند اليونان والرومان ، فإذا سرنا مثلاً مع الشعر الإنجليزي وجدنا تشوسر « أبا هذا الشعر » ينظم قصيدته الطويلة في زوجة « اللوق لانكستر » وقد سماها « كتاب الدوقة » . وما زال الشعراء الإنجليز ينظمون مراثي مختلفة حتى بلّغهم ملتن بمراثيته لسيداس « *Lycidas* » وفيها يرثي رفيقاً من رفاقه في الجامعة ابتلعه اليم ، وسماه باسم رينى هولسيداس ، ونحا بقصيدته فيه منحى الشعر الرينى عندهم . ومن أروع المراثي الإنجليزية أدونس « *Adonais* » لشلي ، وهي في رثاء الشاعر كيتس الذي مات في ريعان شبابه ، وأدونس في الأساطير الإغريقية شاب جميل وقعت في شباك جماله فينوس ، فاتخذته شلي رمزاً لصاحبه . ولتنيسون مراثية طويلة في صديق له سماها في الذكرى « *In Memoriam* » وقد نسج فيها أفكاراً رائعة عن الحياة والموت . ومن المراثي الإنجليزية البديعة مراثية توماس جراي وقد دعاها « مراثية كتبت في فناء كنيسة ريفية » وفيها لا يرثي شخصاً بعينه ، وإنما يرثي الطبقة الكادحة في الريف التي يموت أفرادها دون أن ينالوا حظاً من المجد والشهرة .

وفي الأدب الفارسي مراث كثيرة ، وهم يحتنون فيها أمثلة الشعر العربي ، وخاصة مراثي آل البيت ، فلمهم فيها روائع لا تحصى . ويلقى الأدب التركي بالأدب الفارسي والعربي جميعاً في هذا الباب . واشتهر في عصر قريب منا شاعرهم عبد الحق حامد بديوانه « مقبر » وهو يرثي فيه زوجه التي سبقته إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذه الشاكلة لا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقى الحضارة إلا وهى تبكى موتها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه ، فالقصة واحدة وكل يوم يسقط فصل من فصولها ، ومن يبكى اليوم غيره يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير .

لفصل الأول

الندب

١

معنى الندب

الندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والياكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع .
وقد عرف العرب منذ العصر الجاهلي المآثم حيث يجتمع النساء للصياح والعويل على الميت ، وظل ذلك في الإسلام ، إذ أباحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محرماً ما كان يقترون به من كتمش للوجوه بالجلود وحلق للرءوس . وإنما أباحه لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لمصابهم فيه ، ويروى الرواة أنه لما بكت نساء المدينة على قتلى غزوة أحد من ذويهن قال الرسول : « لكن حمزة بن عبد المطلب لا يبكيه أحد » ، وكان قد قتل في هذه الغزوة ، فأصبح سنة في نساء المدينة أن لا يقمن مأتماً على مر العصور إلا بدأن بكاءهن بحمزة عم الرسول .

وتوجد النساء الندابات في الجاهلية يؤلفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم ، ومع مضي الزمن انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر ، فأصبح هناك محترفون ومحترفات يُعولون في المآثم بأشعار تصنع لهم . والغريضة معنى مكة المشهور في العصر الأموي هو أهم من احترفوا صناعة الندب في عصره ، فكان الشعراء إذا مات شريف أو شريفة صنعوا له أبياتاً ينوح بها ، وقالوا إنه

كان يتفوق تفوقاً ظاهراً على جميع الناحية والبكاكين في الحجاز لما امتاز به من صوت حزين يمتلىء بالأسى والشجى .

وكان الغرييض وغيره ينوحون على نقر الدفوف وضرب الصنوج ، حتى يصبح النواح شيئاً مفرعاً . وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يزخر بأصوات محزنة غُنِيَّتْ في المآتم ، وكلها ذات رُقْمٍ موسيقية مضبوطة .

ومهما شَرَّفْنَا في العالم العربي أو غَرَّبْنَا وجدنا هذا النذب والنواح ، وهو في أصله إنما يكون على الأهل والأقارب ، وقد يبكي الشاعر نفسه ساعة الاحتضار حين يحس بالموت ، وقد كثر له عن أنيابه ، فيفزع إلى بعض أبيات يصور فيها كارثته ، أو يصور ألمه وأحزانه على فراق فردوسه الأرضي .

وقد يتحول هذا النذب والنواح إلى مآتم تلور مع الأعوام والسنين ، وكأنها مأساة كبيرة تمثل من حين إلى حين . ويتضح ذلك في رثاء آل البيت ، فقد بكاهم شيعتهم بكاء مراراً ، وعقدوا لهذا البكاء مواسم عينوها في أيام السنة ، وأحالوها حزناً وسواداً .

ولم يبك شعراؤنا الأفراد والأُسَر فحسب ، بل بكوا أيضاً الدول التي دالت ، والبلدان التي تُخربت أو امتدت إليها أيدي الصليبيين أو مسيحي الأسبان ، فهي الأخرى لها حظها في النذب والبكاء واللوعة والأنين .

٢

نَدْبُ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ

لعل أقدم صور النذب والنواح في شعرنا العربي هي صورة نَدْبِ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ والنواح عليهم . وللمرأة الجاهلية في هذا المجال القيسط الأكبر والنصيب الأوفر ، إذ كانت تنذب أباهاً وإخوتها ، فما تزال تنوح على من يتوفى منهم حتف (١) أنفه ، وعلى من يموت قَعَصاً (٢) بالرماح والسيوف ،

(١) الموت حتف الأنف : الموت على الفراش .

(٢) قعصه بالرمح أو السيف : قتله في مكانه .

وما أكثر من كان يموت منهم في حروبهم الدائرة على المراعى .

وكلنا نعرف كثرة أيامهم ووقائعهم في الجاهلية ، وكان كل يوم يختلف وراءه صرعى ، وكل صريع تنديه النوادب من أهله وقبيلته . فكان يلطمن ويخمشن وجوههن ويحلقن رموسهن ويشققن جيوبهن ويقرعن صدورهن على من طوّح به الأعداء أو بلوّحت به الأقدار إلى مهاوى القبور .

وكتاب « مرآئى شواعر العرب » للويس شيخو يصور عدى ما قلمت به المرأة في هذا الجانب المظلم الحزين ، إذ كانت هي التي تعبر عن ألم القبيلة وحزنها على أبطالها ، وخاصة عقب الأيام والحروب ، ولم تكن تقصد إلى إظهار الحزن فحسب ، بل كانت تقصد أيضاً إلى إثارة القبيلة على خصومها .

وأشهر من بكى واستبكت في الجاهلية النساء ، إذ قتل أخوها معاوية في بعض غاراته ، فعقدت عليه مأتما ضخماً من النواح ، وأثار ذلك أخاها صفراً ، فثار له ، ولكنه جرح جرحاً بليغاً أدى إلى وقاته . فعادت إلى نواحها بأشد مما صنعت على أخيها معاوية ، وكأنا سمع صفراً قلبها ، وأشعل صدرها بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ . ولحقت الإسلام . وأسلمت ، ومع ذلك ظلت ذكرى صخر عالقة بنفسها ، وفيه تقول :

قَدَى بَعَيْنِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أُمُّ ذَرَفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ^(١)
كَانَ عَيْنِي لَذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ فَيَضُّ بِسَيْلٍ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذْرَارُ^(٢)
فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقُّهَا وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أُسْتَارُ^(٣)
تَبْكِي خُنَاسٌ وَمَا تَنْفَكُ مَا عَمَرَتْ لَهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ وَهِيَ مِقْتَارُ^(٤)

(١) العوار : الريد ، ذرفت : قطرت قطراً متتابعاً .

(٢) الفيض : الماء الغزير ، ومذار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وجديد الأرض كناية عن أنه حات حديثاً ، فأرضه التي دفن فيها

لا تزال جديدة لم تبل ولم تندثر .

(٤) خناس : النساء ، مقتار : ضعيفة .

تبكى خُنَّسٌ على صَخْرٍ وَحَقٍّ لَهَا إِذْ رَأَى الدَّهْرُ أَنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارٌ^(١)
 بكاء والممة ضَلَّتْ أَلْفَهَا لَهَا حَنِينَانِ : إِصْفَارٌ وَإِكْبَارٌ^(٢)
 تَرَعَى إِذَا نَسِيَتْ حَقِّي إِذَا ذَكَرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
 وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِيَنَّ الْمَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَسَلٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(٣)

وواضح أن الأبيات تمتلئ بالشاعر الصادقة ، وهي مشاعر أنتت تعمقها الحزن ، بل إن قلبها ليكتوى به ، وهي لا تملك إفصاحا عن حرارته في أحشائها إلا هذه الكلمات المتعانة ، فهي تحملها كل ما تشعر به من وجْد ، وترفع بها صوتها وترجعه كترجيع الواهية من الحيوان على أليفها ، فهي لا تقصد ولا تعتدل ، بل تفرط في نحيبها وتعلو بنشيجها ونواحيها ما وسعها الإفراط والعلو . إن أُنْخَاها الذي كان أَمَلُهَا في دنياها بعد أن خَطَقَتِ المُنُونُ أُنْخَاهُ قد أصبح بين عَشِيَّةٍ وضحاها خلف أَسْتَارٍ وَأَحْجَارٍ ، وما تزال الأرض التي وُسِّدَ فيها جديدة ، فوته منذ أيام ، ونزوله في هذه الحفرة المظلمة لم يمض عليه إلا فترة قصيرة . وهي تنظر إليه من حولها كما عودها فلا تراه ، فتندبه ندبا حارا ، وما تزال تذهب وتجيء ، وما تزال حائرة ، والدموع في عينيها ولسانها ينوح . ويموت أبوها فتبكيه ، وتتحول حياتها إلى مآتم متكررة ، لا تزال تيكى فيها وتتعب .

وهذه اللوعة المتقدة في فؤاد الحنساء نجدتها تنقد أيضاً في فؤاد بعض الشعراء على إخوتهم ، ولعل مُشْتَمَّ بن نُؤَيْرَةَ الشاعر المخضرم أكثر الشعراء القلحاء لوعة وحرقة على أخيه ، وكان قد قتل في حروب الردة ، فرثاه رثاء حارا لا يصدر إلا عن قلب مومج وفؤاد ملتاع ، ومن قوله فيه :

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ صَدِيقٍ لَتَذُرَافِ الدَّمُوعِ السَّوَافِكُ
 يَقُولُ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتُهُ لَقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ الثَّوَى قَالِدٌ كَادِكُ^(٤)

(١) رآها الدهر : رأت منه ما يسوفا .

(٢) الإصفار بالحنين : تخفيض الصوت به ، والإكبار : رفعه .

(٣) العلم : الجبل .

(٤) لوى الرمل : منقطعه ، والد كادك : جمع دكدك وهو الرمل المستوى .

قلت له إن الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكٍ

وقد ظل يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن ، وحتى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له ، وصار ندبه لأخيه مصير الأمثال ، فهو يُرَوَّى ويتمثل به في كل مكان ، ومن بديع ما قاله فيه :

أرى كل حَبْلٍ بعد حَبْلِكَ أَقْطَعَا ^(١)	أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَإِنِّي
وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تَجِيبَ وَتَسْمَعَا	وَأَنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِيبُ
وَأَمْسَى تُرَابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلَقْعَا ^(٢)	تَحِيَّتَهُ مِنِّي وَإِن كَانَ نَائِيًا
فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي حِينَ وَدَّعَا ^(٣)	فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا ^(٤)	وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ
لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا	فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
أَوَالِئُ كُنَّ مِنْ سَلَى إِذْ لَتَضَعَّضَا ^(٥)	وَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى أَصَابَ مُتَالِعَا
ذِهَابِ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا ^(٦)	سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ

والآبيات من قصيدة طويلة حاول أن يتجلد في أولها ، ولكن لم يلبث أن غلبه الحزن على أخيه فتحسّر على فراقه ، وبكى لوداعه ، ولأنه ليحييه من بعيد وهو يئن أنين الشكلى المقروحة الفؤاد، مصورا عظيم ما نزل به من المصيبة الفادحة التي لو نزلت بجبل لدكته دكا . ولم يلبث أن استسقى لقبره قطع

(١) أقطع : مقطوع .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

(٣) بان : فارق .

(٤) جذيمة هو جذيمة الأبرش ، نادم مالكا وعقيل ابنى فارح بن كعب ، ثم قتلها ،

يتصدعا : يتفرقا .

(٥) متالع وسلي : جبلان .

(٦) الذهاب : جمع ذهبة وهي القطعة الغزيرة من المطر ، والغوادي : الشعب التي تغدو

بالفيث ، والمُدْجَنَات : الكثيفة الشديدة السواد ، وأمرع : أخصب .

السحاب الكثيفة حتى تخضر الأرض من حوله وترهى به ويجدته ، ويصبح
منها في روض بهيج .

وما يزال الزمن يتقدم بنا حتى نلتقى بالعصر العباسي عصر الرقي الفكري
والتمعق في الأحاسيس والمشاعر فنجد أبا تمام يرثي أخاله رثاء باكيا ، وكأن كل
بيت فيه يقطر دمعا بل دما ، فالحزن يجري في قلبه وفؤاده ، بل في أعطاف أبياته
نفسها ، فهي تنبض به وتخفق ، يقول :

إني أظنّ البلى لو كان يفهمه	صدّ البلى عن بقايا وجهه الحسن
يا يومه لم تدع حُسنا ولا أدبا	إلا حكمت به للحدِّ والكفن
لله مقلته والموتُ يكسرها	كأن أجفانه سكرى من الوسن
يردُّ أنفاسه كرهاً وتمظفها	يدُ المنية عطفَ الريح للفصن
يا هولَ ما أبصرت عيني وما سمعتُ	أذنى فلا أبصرت عيني ولا أذنى
لم يبق من بدني جزءٌ علمتُ به	إلا وقد حله جزءٌ من الحزن
كان اللّحاقُ به أهنا وأحسن بي	من أن أعيش سقيمَ الروح والبدن

وهو في هذه الأبيات يصور تصويرا دقيقا صراع أخيه مع الموت ساعة
الاحتضار ، وقد عرف كيف ينقل إلينا اللحظة بكل ما ونزه فيها من إبر الألم
والجزع ، حتى ليتحول إلى هيكل للأوصاب والأشجان ، فكل جزء فيه يملؤه
وصب وشجن ووجع ، لما رأى وسمع . لقد رأى أخاه والموت يكسر أجفانه ويخفق
أنفاسه ، وإن كل نفس ليخترق حجاب سمعه بما فيه من حشجة ، فتكاد
تنقطع نياط قلبه هما وحزنا ، ولأنه ليود أن يلحق بأخيه حتى لا تعاوده أشباح
هذه الذكري التي تضغط على قلبه وتعتصر فؤاده اعتصارا .

وإذا كانت أصوات الناحة قد ارتفعت على مر العصور مع موت الإخوة
فإن هذه الأصوات قد بُحَّت مع موت الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فإن حرارة
الأمهات والآباء بهم تاكل قلوبهم وأفتلتهم إذ يرون كأن أجزاء وأعضاء من
أجسادهم بترت بترًا ، وصدقت هذه الأعرابية التي تقول في رثاء ولدها :

يَا قُرْحَةَ الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ وَالْكَبِيدِ يَا لَيْتَ أَمَّكَ لَمْ تَحْبَلْ وَلَمْ تَلِدْ
أَيَقْنَتُ بَعْدَكَ أَنِّي غَيْرُ بَاقِيَةٍ وَكَيْفَ يَبْقَى ذِرَاعٌ زَالٍ عَنْ عَضُدٍ

فهى تشعر شعورا عميقا بأن جزءا منها وازاه التراب ، وهى فى طريقها إليه
لتضمه إلى جسدها وصدرها . فحياتها قد انتهت بموته ، وهى تجتاز وادياً مظلماً
من الغُصَصِ والآلام ، وتقطع بين التشجيع والتحيب ، حتى تصل إليه بعد التعب
وطول العناء والشقاء . وما أصدق بكاء الأب الذى هوى ابنه تحت عينه من قمة
جبل ، ففارقته روحه للتو والساعة ، فراح يقول :

هَوَى ابْنِي مِنْ عَلَا شَرْقٍ يَهْوِلُ عُقَابُهُ صَعْدُهُ^(١)
وَلَا أُمٌّ فَتَبْكِيهِ وَلَا أُخْتُ فَتَفْتَدُهُ
هَوَى عَنْ صَخْرَةٍ صَلْدٍ قُفِرَتْ تَحْتَهَا كَبِيدُهُ^(٢)
الْأُمُّ عَلَى تَبْكِيهِ وَالْمُسَى فَلَا أَجْدُهُ

فابنه قد سقط سقطة لا إقالة له منها ، سقط فى هاوية الموت بأسفل الجبل ،
ورآه أبوه وهو يسقط فى قرار الأبدية العميق ، ولم يستطع أن يمد له عوناً ، ومع
ذلك لا يزال يظن أنه من حوله ، فيضع يده ويتحسس كالأعمى فلا يجده ،
ولأنما يجد الفقد والوجد والبكاء .

ولعل أباً لم يبلغ من التعبير عن لوعته بفقد أبنائه ما بلغه أبو ذؤيب الهذلى فى
بكائه لابنيه السبعة الذين اختطفهم الموت من يده وحجره ، فقال يتوجع لفراقهم
ويتحسر لموتهم :

أَمِنْ الْعَنُونِ^(٣) وَرِيهِ تَتَوَجَّعُ وَالْدهرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمِّيَّةٌ مَا لَجَسْتُكَ شَاخَا مِنْذَ ابْتَدَلْتُ وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ

(١) الشرق : قمة الجبل ، والصعد : الصعود .

(٢) الصلد من الصخور : الذى لا ينبت ، وقُفِرَتْ : تقطعت .

(٣) العنون هنا : الدهر .

أم ما لجسك لا يلائم مضجعا إلا أقض^(١) عليك ذاك المضجع
 فأجبتها أما لجسى إنه أودى بنى من البلاد فودعوا^(٢)
 أودى بنى وأعقبونى حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع^(٣)
 سبقوا هوى وأعقبوا هواهم فتخرموا، ولكل جنب مضرع^(٤)
 فبقيت بعدهم بعيش ناصب وإخال أنى لاحق مستنصب
 ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا النية أقبلت لا تدفع
 وإذا النية أنشبت أظفارها ألقيت كل تيسية لا تنفع^(٥)
 فالعين بعدهم كانت حذاقها سملت بشوك ففى عور تدفع^(٦)
 حتى كأنى للحوادث مروءة بصفا المشرق كل يوم تفرع^(٧)
 ولئن بهم فجع الزمان ودرئبه إني بأهل مودتى لمفجع

وهى صيحة حسرة وألم صاحبها أب من أحشائه وسويداء فؤاده ، وقد وصف
 فيها شحوبه وسهاده ودموعه التى لا ترقأ ولا تجف ، وذكر أن عيشه انقلب مرا
 من بعدهم ، فهو يتجرع الحياة كأنها غصص من العذاب . لقد رأهم والموت
 يتلقفهم واحدا بعد واحد ، فلم يستطع دفعا له ولا ردا . وتلك البراعم التى غرس
 شجرتها وسقاها من روحه وقلبه تنفتحت وتذبل أزهارها فى الكيام ، ولا حول له ولا
 قوة . إن عليه أن يتلقى النهاية المفجعة لكل غلظة من فلذات كبده . وكل ابن
 كان ملء روحه وقلبه ، وتقفر الدنيا من حوله ، ولا يبقى له إلا الألم والبكاء الممض
 وإلا هذا الوادى وادى الموت الذى يحوس خلاله .

(١) أقض عليه المضجع : وجده شعثا لا يريحه .

(٢) أما هنا مركبة من أن وما الموصولة ، أودى : هلك .

(٣) تقلع : تكف .

(٤) هوى : هواى ، أعقبوا : أسرعوا ، تخرموا : ماتوا واحدا بعد واحد .

(٥) التيسية : العوزة .

(٦) الحذاق : جمع حذقة ، سملت : غقتت .

(٧) المروءة : حبر أبيض تقلع منه النار .

وما يزال الشعراء يضحجون بالبكاء والندب على أبنائهم حتى نصل إلى العصر العباسي ، فنجد إبراهيم بن الخليفة المهدي يموت له ابن بعيدا عنه في البصرة ، وكان هو ببغداد ، فقال يرثيه :

دَعَتْهُ نَوَى لَا تُحْزِنِي أَوْبَةٌ لَهَا	قلبك مسلوبٌ وأنت كثيبٌ
تَبَدَّلَ دَارًا غَيْرَ دَارِي وَجِيرَةٍ	سِوَايَ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَقُوبُ
يُؤُوبُ إِلَى أَوْطَانِهِ كُلُّ غَائِبٍ	وَأَحَدُ فِي الْغِيَابِ لَيْسَ يَثُوبُ
كَأَن لَمْ يَكُنْ كَالنَّصْنِ فِي مِيعَةِ الضُّحَى	سَقَاهُ النَّدَى فَاهْتَزَّ وَهُوَ رَطِيبُ
كَأَن لَمْ يَكُنْ كَاللَّيْلِ يَلْمَحُ نَوْرُهُ	بِأَصْدَافِهِ لَمَّا تَشْنَنُهُ ثُقُوبُ
وَرِيحَانٌ صَدْرِي كَانَ حِينَ أَشْمُهُ	وَمُونِسٌ قَصْرِي كَانَ حِينَ أُغْيِبُ
قَلِيلًا مِنَ الْأَيَّامِ لَمْ يَرَوْ نَظِيرِي	بِهَا مِنْهُ حَتَّى أَعْلَقْتُهُ شَعُوبُ ^(١)
كَظَلِّ سَحَابٍ لَمْ يُقَمْ غَيْرَ سَاعَةٍ	إِلَى أَنْ أَطْلَحْتُهُ فُطَاحَ جَنُوبُ ^(٢)
أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا مِنْ غَمَامٍ تَحَسَّرْتُ	مَسَاءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحَانُ غُرُوبُ
سَابِكِيكَ مَا أَبْقَتْ دُمُوعِي وَالْبُكَاءُ	بَعِينِي مَاءُ يَابُنَى يُجِيبُ
وَمَا غَارَ نَجْمٌ أَوْ تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ	أَوْ اخْضَرَ فِي فَرْعِ الْأَرَاكِ قَضِيبُ
حَيَاتِي مَا دَامَتْ حَيَاتِي فَإِنْ أُمْتُ	ثَوَيْتُ وَفِي قَلْبِي عَلَيْكَ نَدُوبُ ^(٣)
وَأُضْمِرُ إِنْ أَنْفَدْتُ دُمْعِي لَوْعَةً	عَلَيْكَ لَهَا تَحْتَ الضُّلُوعِ وَجِيبُ
وَإِنْ صَبَاحًا نَلْتَقَى فِي مَسَائِرِ	صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْغَدَاةَ حَيْبُ

ولا ريب في أن هذه صرخة من الأعماق فإن أحد توفي دون أن يراه أبوه ، توفي بعيدا عنه غريبا عن الأهل والأقرباء ، وإن ذلك ليحز في فؤاد أبيه ، بل إنه ليلتاع له التياغا ، فكل غريب يؤوب إلا أحد ، وتلك القوافل كلها

(١) شعوب : المنية .

(٢) الجنوب : الريح الجنوبية .

(٣) ندوب : جروح .

خلاء منه . إنه رحل في قافلة أخرى ، قافلة لا تسير في النهار ، وإنما تسري في ليل الأبدية . وينعاه أبوه ، ينعي شبابه ونضرتة وريحانه وأنسه . وإنه ليدكر أيامه الماضية فتتراعى له قصيرة كظل سمابة وغروب شمس ، فيبكي ويئن مع طلوع كل صباح ودخول كل مساء ، ومع حنين الطير وشدة الحمام . ووراء الأنين والبكاء حرقه الوجد وألم الفقد ، وإنه لينتظر الموت ، حتى يغرق في لُجَّته عذابه ، بل حتى يلقي ابنه الذي فصمه منه وفصله عنه .

ونمضي فنلتقي بأبي تمام ، وقد قرع الموت فؤاده ، إذ استخلص لنفسه منه ابنه ، وكان تحت بصره وهو يجالذ الموت بكل ما يملك ، ولكن الموت غلاب ، فلم يلبث أن غلبه على أمره ، فاستسلم لقضاء ربه ، ورأى كل ذلك أبو تمام ، فقال :

آخرُ عهدى به صريحا	للموت بالداء مستصكينا
إذا شكا غُصَّةً وكَرْبا	لاحظ ^(١) أو راجع الأئينا
يُدِيرُ في رَجْمِهِ ^(٢) لسانا	يمنعه الموتُ أن يُبيننا
يَشْخَصُ طورا بناظرينه	وتارة يُطْبِقُ الجفونا
ثم قَضَى نَحْبَهُ فأمسى	في جَدَثٍ ^(٣) للثرى دَفيننا
بعيد دارٍ قريب جارٍ	قد فازق الإلف والتدين ^(٤)

ولا يقرأ أحدهذه الأبيات حتى ينبض قلبه ويخفق ، لأن أبا تمام عرف كيف يصور لحظة الاحتضار وما يرافقها من ضربات الموت ، إنها تسدد إلى ابنه ، وهو لا يستطيع لها ردا ، ويشكو ويفتح عينيه ، وما تلبث يد الموت السوداء أن تغمضهما ، بل إنها لتتقدم له بكثوس مليئة بالغصص والكُرَبِ ، ولا يستطيع إلا أن يشرب منها ، يشرب السم الزعاف . إن روحه عند حلقه ، وإن ومضات الحياة

(١) لاحظ : نظر إلى أهله مستغيثا .

(٢) الرجوع : رد الكلام .

(٣) الجدث : القبر .

(٤) الخدين : الصديق .

تبرق في عينه، ثم لا تلبث أن تختفي في ظلام الموت وبين محبه التي اكفهر بها الجوى،
ولانه لجوخائق . واختنق الغلام وفارق دنياه، وخلّف أباه وراعه للأوجاع والآلام،
على نحو ما خلف لابن الرومي ابنه الأوسط محمد، إذ مات متزوفا، فقال يكيه:

تَوَخَّى حِمَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي	قُلَّةً أ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعِقْدِ ^(١)
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ التَّهْدِ وَاللَّحْدِ كَبْتُهُ	فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضُمَّ فِي اللَّحْدِ
أَلَحَّ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ	إِلَى صَفْرَةِ الْجَادِي عَنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ ^(٢)
وَنَظَلَ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسُهُ	وَيَذْوَى كَايَذْوَى الْقَضِيبِ مِنَ الرَّندِ ^(٣)
فِيَالِكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا	تَسَاقُطَ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلَا عَقْدِ ^(٤)
أَرِيحَانَةَ الْعَيْنِينَ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا	أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي
كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ	وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
أَلَامُ لِمَا أَبْدَى عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى	وَأِنِّي لِأَخْفَى مِنْكَ أَضْعَافَ مَا أَبْدَى
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّي تَحِيَّةً	وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرَقِ وَالرَّعْدِ

وابن الرومي مثل أبي تمام محترق القلب على ابنه الذي رآه يجود بنفسه تحت
بصره ، وقد عركه النزف وأحاله في صفرة الزعفران ، ولانه ليرتعش في يد الموت
الأثيم الذي سلّ عليه سيفه ، وإن دماعه لتسيل والمنون لا ترحم . فيا لابن الرومي !
إنه يشعر كأن نفسه تتساقط من بين جنبيه وهذه الزهرة الحاملة التي كان يجد فيها
فرحة قلبه وحشاه قد أخذت تذوي قبل الأوان ، وكأنه لم يستمتع منها بشمة ولا
ضمة فيا لبؤس الحياة ! إنها تبدو في صورة بشعة من القبح والألم . وابن الرومي
يفزع ويرتاع ، ولا ينفعه فزعه ولا ارتياحه ، فيعود إلى تحية ابنه ويستسقي له على
عادة العرب الغيث والسحاب .

(١) واسطة العقد : الجوهرة التي تتوسط لآله .

(٢) الجادي : الزعفران .

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة .

(٤) نظام بلا عقد : سلك غير معقود .

وما أكثر من بكوا أبناءهم ! وبكاء الشهابى لابنه ذائع مشهور ، وهو يستله بالحديث عن فناء الناس وكل ما على الأرض ، وما يلبث أن يندبه ندبا حارا ، فيقول :

يا كوكبا ما كان أقصرَ عمره وكذلك عُمرُ كواكبِ الأسفار
وهلالَ أيامٍ مضى لم يستدِرْ بذرا ولم يُتمَلْ لوقتِ سرار^(١)
عجل الخسوفُ عليه قبل أوانه فحماه قبل مَظِنَّةِ الإبدار

ومن أروع ما نظم في بكاء الأبناء مقطوعة لفقيه الأندلس أبى الوليد الباجي ندب بها ابنين له ماتا مغترين ، وهى تجرى على هذا النمط :

رعى الله قبرين استكانا بيلدٍ هما أسكناهما فى السواد من القلبِ
يقرُّ بعينى أن أزور ثراها وألصق مكنون التراب فى التراب^(٢)
وأبكى وأبكى ساكنها لعلنى سأثجد من صخبٍ وأسعد من صخب^(٣)
فما ساعدت وزق الحام أخا أسى ولا روحت ربح الصبا عن أخى كرب
ولا استعذبت عيناى بعدها كرى ولا ظمئت نفسى إلى البارد العذب
أحين ويئني اليأس نفسى عن الأسى كما اضطرَّ محمول على المركب الصعب

والأبيات تفيض بالشعور الصادق الذى يعبر عن نفس مجروحه قد هدأها الهم وضعضعها الحزن ، وإن صاحبها بالجزع أشد الجزع ملتحا أعظم التليح . وربما كان أهم شاعر ولع برثاء ابنه وبكائه أبو الحسن على بن عبد الغنى الكفيف شاعر القيروان الذى هاجر إلى الأندلس حين خربها العرب حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة ، فقد توفى له ولد فى التاسعة من عمره ، فصنع فيه مراثى على حروف المعجم ألف منها ديوانا سماه « اقتراح القريح واجترح الجريح » وفيه يقول :

(١) يستدِر : من استدارة البدر فى وسط الشهر . وقت السرار : وقت اختفاء القمر بحلة .

(٢) التراب : عظام الصدر

(٣) أسعد : من أسعد أى أحياه فى البكاء والنواح

أنا فَرَزْدُ بلا خليل ولا ابن ولا آخر
أنا كالأورق اشتكى بُعْدَ وَكْرٍ وأفسرُخ
قُرَّةُ العين دونه برزخُ أيَّ برزخ

ومع طول الديوان تقل فيه الأبيات الملتاعة، إذ شُغِلَ صاحبه بالصور البيانية والخيال البلاغية مما كان يعد آية البراعة في عصره .
ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن نذب الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المحزونة من نذب الأهل والأقارب ، فإننا إذا تركناهم إلى غيرهم من الأصول والفروع لم نجد هذه الحُرقة التي تتصور لها الأحشاء والقلوب ، ومع ذلك من حين إلى حين نجد بكاءً لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت ، وربما كانت مرثية شوقٍ لأبيه خير صورة لنذب الآباء في العربية ، وإن كان قد أدخل عليها تفكيراً في الحياة والممات ، ولكن تظل بعض الأبيات لها روعة النذب واليكاء كقوله :

أنا من مات ومن مات أنا	لَقِيَ الموتَ كلانا مرتين
نحن كنا مهجةً في بَدَنٍ	ثم صرنا مهجةً في بدنين
ثم عُدنا مهجةً في بَدَنٍ	ثم نُلْقَى جُثَّةً في كفتين
ما أبى إلا أخٌ فارقتهُ	ودَّه الصدقُ وود الناس مَيَّن
طلما قننا إلى مائدةٍ	كانت الكِسرةُ فيها كسرتين
وشربنا من إناءٍ واحدٍ	وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وقليل بين الشعراء من رثى أمه ، وربما كان من أجهل ما قيل في الأمهات قول ابن سناء الملك في أمه من موشحة :

حزنى على أمي حزنٌ شديدٌ	تَبَلَّى الليالى وهو غصٌّ جديدٌ
فقل لنار القلب هل من مزيدٌ	وقل لصرف الدهر هل من تحيدٌ

ورثي المتنبى جدته ، ولكن رثاءه فيها يدور على الفخر بنفسه أكثر مما يدور على بكائها ، وقد تأثر به شوقي في رثاء جدته « تميز » . ويندر أن نجد ندبا حارا لأخ على أخته ، وربما كان أبو فراس الحمداني خير من ندب أختا له ، ففى أخته يقول :

عقيلتى استلبت من يدي ولما أبقها ولما أهب
وكنت أقيك إلى أن رمتك يد الدهر من حيث لا أحسب
فلا سلت مقلة لم تسح ولا بقيت لمة لم تشب

وهذه كلها مراث لا تبلغ من حرارة التصجع ما تبلغه مراثى الأبناء ، وإذا كان هناك قصور فهو من قبيل الرجال الذين تعودوا — تقليداً للجاهليين — أن لا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وأن لا يبكو عليهن . أما المرأة فكانت أكثر وفاء للرجل ، بكته أنها وأبا وابنا ، وبكته زوجاً ، حدث الأصمعي أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهى تبكى وتقول :

خدى تقيك خشونة اللحد وقليلة لك سيدى خدى
يا ساكن القبر الذى بوفاته عميت على مسالك الرشد
اسمع أبثك على فلعلنى أطفى بذلك حرقة الوجد

وتزوج الأمين بفتاة ، وتوفى عنها قبل أن يبنى بها ، فندبته ندبا حارا ، ومن قولها فيه :

أبكىك لا للنسيم والأنس بل للمعالي والرمح والفرس
أبكى على سيد فجمت به أرملنى قبل ليلة العرس

فالمرأة لم تقصر فى بكاء أهلها وأزواجها ، وقد بكى كثير من الرجال زوجاتهم ، وربما كانت الزوجة أهم النساء اللاتى ذرف الرجال عليهن الدموع ، فنحن نجد فى كتب الأدب قديما وحديثا قطعاً مبكية فى هذا الجانب . ومن

طريف ما رُوِيَ لبعض الأعراب :

فوالله ما أدري إذا الليل جَنَنِي وذَكَرَنيها أَيْنا هو أَوْجَعُ
أَمْتَفَصَلُ عَنْ نَدَى أُمِّ كَرِيمَةٍ أُمُّ الْعَاشِقِ النَّابِي بِهِ كُلُّ مُضْجَعٍ^(١)

وصور هنا هذا الأعرابي ما يبكيه الرجل في زوجته ، فهو يبكي معشوقته من جهة وأم أطفاله من جهة ثانية . ومن أروع ما رُئي به الزوجات وأشجاء قول محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته :

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْمَفَارِقَ أُمَّهُ بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ^(٢)
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبِيتَانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَبِجَانِ
وَبَاتَ وَحِيدًا فِي الْفِرَاشِ تَحْتُهُ بِلَابِلُ قَلْبِهِ دَائِمُ الْخَلْفَانِ
فَلَا تَلْحَيَايَ إِنْ بَكَيْتِ فَإِنَّمَا أَدَاوَى بِهَذَا الدَّمْعِ مَا تَرِيَانِ
وَإِنْ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَتَانَا إِنْ عُجِثُ مَتَظَرَانِ

وفي هذه الأبيات لوعة حقيقية ، لوعة الزوج الوامق الذي يكاد يموت حسرة وأسى على زوجته ، وإنه ليولي وجهه شطر ابنها ، ويرى حزنه وولمه ، فتعظم الحسرة ويعظم الأسى والشجن في نفسه ، فيحن إليها ، يحن إلى جسدها وروحها ، وما يزال يختلف إلى قبرها بنفس الحرارة والعمق اللذين كان يختلف بهما إلى قصرها . وماذا يستطيع ، وماذا يحني ؟ لأنها ذهبت إلى الأبد ولم يعد له منها إلا الدموع الغزار وإلا الآلام والأشجان .

وعلى نحو ما رُئي العباسيون زوجاتهم رثوا جوارهم وبكوهن ، وارتفع صياحهم وراءهن ، وناحوا عليهن نواحاً لا ينقطع ، ومن اشتهروا بذلك في العصر

(١) واضح أن حركة الروي في هذا البيت تخالف حركته في البيت السابق ويسمى العرب

ذلك إقواء .

(٢) تبتران هنا : نسيان بالدموع .

العباسي يعقوب بن الربيع ، وكان عشق جارية ، وظل سبع سنوات يبذل فيها
جاهه وماله حتى ملكها فأقامت معه بضعة أشهر ، ثم ماتت ، ف شعر كأنه كان
في حلم وأفاق منه على البؤس ، وله فيها نذب كثير ، منه قوله :

لله آتية فجئتُ بها ما كان أبدا من الدُّنسِ
أتتِ البشارة والنعي معا ياقرب مآتمها من العُرسِ
كم من دموعٍ لا تحِفُّ ومن نَفْسٍ عليك طويلة النفسِ
أبسكيك ما ناحت مطوِّقة تحت الظلام تنوح في الفلَسِ

وكأنما كان هناك سباق بين القدر وبين يعقوب أن لا ينعم بأمنيته ، فلم
يكذ يظفر بها ، ولم تكذ تغمر حياته بنور السعادة ، حتى فرت من أمام عينيه ،
ونخفت له للظلام والوحشة . ألا إن هذه مخزية القدر ، لقد ظل يطلبها سبع
سنين ، ولم يكذ يحصل عليها ويلمسها ، يلمس فرحته وسعادته ، حتى أتاه النعي
مع البشري ، وانقلب العرس البيج إلى مآتم حزين .

وعلى نحو ما بكى العباسيون جواربهم وزوجاتهم بكاء فيه شجى وأسى
بكت الأقاليم العربية الأخرى ، ففي كل مكان نجد مرثى الجوارى والزوجات ،
فن ذلك رثاء المعلّى الطائي المصري جاريته « وصف » وفيها يقول :

ياموت ما بقيت لي أحدا لما زقت إلى البلى وصفا
أسكنتها في قمر مظلمة بيتنا يضافح حزبه السقفا
بيتنا إذا ما زاره أحد عصفت به أيدي البلى عصفا
ياقبر أبى على محاسنها فقد حوت النور والظرفا

وهي مرثية طويلة ، وتمتاز بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن .
وللمصريين من ورائه مرثى مبكية كثيرة في زوجاتهم ، وكذلك الأندلسيون ،
ولبعضهم في رثاء زوجته وكانت تسمى زينب :

أزینبُ إن ظننتِ فإن ظهراً أقالک^(١) سوف یرکبه المقيم
ولما أن حَلَلتِ التُّرْبَ قلنا لقد ضَلَّتْ مواقعها النجومُ
ألا یازهرة ذَبَلْتُ سريعا أضنَّ المَزنُ أم ركدَ النسيمُ

والصورة المرسومة في البيت الأخير جميلة حقاً ، وهي صورة أملاها حب
دفين لزوجته اختطفها المتون وهي لا تزال في عمر الزهور . إنها زهرة ندية عطرة لم
تلبث أن ذوت قبل الأوان ، وبدیعٌ من الشاعر أن أكمل الصورة بقوله « أَضَنَّ
لمزن أم ركدَ النسيم ؟ » فقد صبَّ في هذا التساؤل الذي تتساءله مواكب الإنسانية
من قديم كلٍّ ما أراد من إظهار الحيرة والدهشة إزاء المصيبة الفادحة .

ومن بكى زوجته في العصر الحديث بكاء حاراً محمود سائى البارودى ، إذ
ماتت شريكة حياته وهو منقٍ في سرنديب فحُرِّمَ أولاده أباهم وأمهم جميعاً .
واجتمع عليه بذلك أسى الننى والفقد وحرمان الأبناء ممن كانت أنسهم في غيبته
وأمنهم وسعادتهم ، ولم يلبث أن بث حسرتة المتوقدة وحرقتة المتأججة في مرثية
طويلة يقول فيها :

يا دهرُ فیم فجعتنى بحلیلةٍ كانت خلاصة عُدَّتى وعَتادى
إن كنتَ لم ترَحَمْ ضَناى لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادى
أفردتَهنَّ فلم یَنَمَنَّ توجعاً قرَحَى العیون رواجفَ الأكبادِ
ألقین دُرَّ عقودهنَّ وصُغْنَ من دُرِّ الدموع قلائدَ الأجيادِ
یَبْکِین من ولَّه فراق حَفِیَّةٍ كانت لهنَّ كثيرة الإسعادِ
فخدودهن من الدموع نَدِیَّةٍ وقلوبهن من الهموم صوادى

ومنذ سنوات نشر كل من عزيز أباطة وعبد الرحمن صدقى ديوانا يرثى فيه
زوجته فقد صهر الحزن قلوبهما ، وسعر فؤاديهما ، فسكبا الدموع ، وسرعان ما
تحولت الدموع إلى ديوان شعر . وسمى عزيز أباطة ديوانه « أناث-حائرة » وهي أناث

نفس سعدت بالحياة الزوجية وفراديسها ، ثم لم تلبث أن رُدَّت إلى جحيم الفراق وهو فراق الأبد . ومن طريف أشعاره فيها قصيدة بعنوان «يوم ميلادى» يقول فى مطلعها :

أقول والقلبُ فى أضلاعه شَرِقُ بالدمع لا عُدَّتْ لى يا يوم ميلادى
نزلتْ بى ودخيلُ الحُزنِ يَعْصِفُ بى وفادحُ البَثِّ ما ينفكُ مُعتادى
وكنتَ تحملُ لى والشملُ مجتَمِعُ أنسا يَفِيضُ على زوجى وأولادى
فانظر تَرَّ الدارِ قد هِيضَتْ جوانِبُها وانظرُ تَجِدُ أهلها أشباحَ أجسادِ
فقدتها خَلَّةً للنفسِ كافيةً تكاد تُغْنى غناء الماء والزادِ
تحنو على وترعانى وتبسط لى فى غمرة الرأى رأى الناصح الهادى

وسمى عبد الرحمن صديق ديوانه « من وحى المرأة » ولم تكن شريكة حياته فحسب ، بل كانت أيضا شريكة عقله ودرسه . فاعتصر الحزن قلبه عليها ، وأوقد فيه نيرانا لا تهدأ من الحسرة والفجعية ، وصوّر ذلك لافى قصيدة أو قصيدتين ، بل فى ديوان كله ألم وعذاب . ومن قوله فيها وقد حمل إلى قبرها باقة من الزهر :

أيا زهرتى فى التراب بين المقابرِ إليك حملتُ الزهر ، شامتُ أزاهرى^(١)
حملتُ إليك الزهر ترويه أدمى وتذويه أنفاسى وحرّ زوافرى
قدمتُ عليك اليوم أسوأ مقدّم سوادٌ بأثوابى سوادٌ بخاطرى
وخاتمُ عُرْسى لا يُزَيِّنُ إصْبَعى ولحّة وجهى غيرها فى التزاويرِ
على قبرك المرموق أبكى وأرمنى وأجار بالشكوى تشق مرأى

ويطول بنا الحديث إذا أخذنا نعرض كل الطرائف التى بكى بها الشعراء والشواعر أهلهم وأقاربهم ومن أصفوهم حبهم . وإنما هذه نماذج لما صور به شعرنا الآلام والأوصاب التى حلت بأصحابه حين طريق الموت أبوابهم ، واختلس تحت أعينهم أفرادا من أسرهم وأقربائهم ورفاقهم .

ندب الشعراء أنفسهم

إذا كان الشعراء قد ندبوا أهلهم وذويهم فأولى لهم أن يندبوا أنفسهم حين
تحين ساعة الموت ، ولا يجدون لهم ملجأ ولا عاصما ، وكثيرا ندبوا أنفسهم
ويكوها منذ العصر الجاهلي ، ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على
لسانه يزيد بن خذاف ، إذ قال :

هل للفتى من بنات الدهر من واقى أم هل له من حمام الموت من راقى
قدر جلوني وما بالشعر من شعث^(١) وألبسوني ثيابا غير أخلاق^(٢)
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا ليُسندوا في ضريح القبر أطباق^(٣)

وطبيعي أن يندب الشعراء أنفسهم وهم يفارقون دنياهم من ورأهم إلى حفرة
مظلمة . إنها ساعات ثم يخرج المشيعون من حولهم وورأهم ، يحملون نعوشهم
إلى قبورهم ، ويدفنونهم في لحودهم ويوارونهم التراب ويعودون ، ليسم كل منهم
دورته في حياته .

وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريبا عن وطنه ودياره ،
وينزل به الموت ولا يجد مقرا من لقائه ، وينظر حوله ، فلا يجد أحدا من أهله ،
فليس معه من سيشيعة ولا من سيحضر له لحده ، ولا من سيبكيه ويندبه . ومن
خير من صور الألم لذلك مالك بن الرئيب الذي غزا في خراسان ، فلما حضرته
منيته ناح على نفسه قائلا :

ألا ليت شعري هل أيتنَّ ليلةً بجنب الفضا أزجي القلاص النواجيا^(٤)

(١) أخلاق : بالية .

(٢) أطباق : عظامي .

(٣) الفضا : شجر يتجد وأرض بها ، والقلاص : النوق ، والنواجي : السريعة .

فليت الغصا لم يقطع الركبُ عرضهُ
لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا
فيا صاحبي رَحُلى دنا الموتُ فاخيرا
وخطأً بأطراف الأسنّة مضجعي
خُذاني فَجُرْاني يَرُدّي إليكما
تفقدت من يكي على فلم أجد
وبالرمّل منا نسوة لو شهدتنى
عجوزى وأختاى اللتان أصيبتا
وما كان عهد الرمل منى وأهله
يقولون لا تبتعد وهم يدفنوني
وليت الغصا ماشى الركاب لياليا
مزارٌ ولكن الغصا ليس دانيا
برايةً إلى مقيم لياليا
ورداً على عيني فضل ردايا
وقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
سوى السيف والرمح الرديني باكيا
بكين وفدين الطيب المداويا
بموتى وبنتى لى تهيج البواكيا
ذميا ولا بالرمل ودعت قاليا^(١)
وأيّن مكانُ البعد إلا مكانيا

والمرثية طويلة ، وكلها شكوى وبكاء وأنين ، لا من أجل الموت فحسب ، بل للموت البعيد فهو يموت غريبا عن الرمل وأهله ، لم تُغمض عينيه أمه ولا أخته ولا بنته ولا زوجه ، وإنه ليذكر الغضا ذكرى مؤلة ، إذ كان مكتمل الصحة والشباب يدفع النوق أمامه ، ولا وحدة ولا غربة . إنه يتمنى لو أنه لم يفارق الغضا ولا أهله ، إذن ما غالت خراسان هامته ، ولكنها الفتوح الإسلامية ، وهو يخرج مجاهداً في سبيل الله مع المجاهدين ، وقد ترك وراءه أسرته قرير العين ، غير أن الفراق صعب ، ولم يكن يعلم حين ودعهم أنه الوداع الأخير . وتطيف به الرهبة من الموت ، كما بطيف به الحنين إلى الأهل ، فيبكي ويندب متأثراً تأثراً عميقاً ، إذا أشرفت حياته على النهاية ، وعما قليل توصلد أحجار القبر دونه . ألا فلينشج ولينح ، إن القدر سيصرعه لا محالة .

ونمضي إلى العصر العباسي فتجد الشعراء يكثرون من نوح أنفسهم ، وخاصة أنهم يذكرون ذنوبهم فيخافون ربهم ، ويشفقون من لقاءه ، فينطلقون وجيلين معلنين التوبة والاستغفار مما قدمت أيديهم ، ولأبي نواس :

(١) القائل : المبتض الكاره .

يَا رَبِّ إِن عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ عَفْوِكَ أَعْظَمُ
 إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا بِحَسَنٍ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمَجْرِمُ
 مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةً إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنْ مُسْلِمٌ

لقد أظلمت الدنيا وادلمت في عين ألى نواس حين نزل به ريب المنون ،
 ففزع إلى ربه يعلق به أمله ، ويرجو منه أن يُسَدِّل ثوب الغفران على ذنوبه
 وسيئاته التى اقترفها ، ويشمله بعفوه وإحسانه . ويكثر الشعراء العباسيون الذين
 صاحبوا هذه الصيحات حين طرقت المنية دورهم ، ولأبى العتاهية هذا الدعاء :

إِلَهِي لَا تَعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
 فَمَالِي حِيلَةً إِلَّا رَجَائِي لِعَفْوِكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
 وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ وَمَنْ
 إِذَا فَكَّرْتُ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا عَضَضْتُ أُنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي
 يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

وشاع بين الشعراء أن يكتبوا على شواهد قبورهم أبياتاً ، فيها أحيانا الدعاء ،
 وفيها أحيانا أخرى ذكر الموت والفناء وأن أحدا لا يقيم في الدار الأولى ، بل الكل
 راحل ، ويقال إن أبا العتاهية أوصى بأن تُكْتَب على قبره هذه الأبيات الأربعة :

أُذِنَ حَتَّى تَسْمَعَنِي اسْمَعْنِي ثُمَّ عَيِّ وَعَيِّ
 أَنَا رَهْنٌ بِمَضْجَعِي فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْجَعِي
 عَشْتُ تَسْعِينَ حِجَّةً ثُمَّ وَافَيْتُ مَضْجَعِي
 لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى الثَّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْدَعِي

وكانت هذه الكتابة على شواهد القبور منتشرة في العالم الإسلامي كله ،
 ويروى أن ابن شهيد شاعر الأندلس المشهور أوصى أن يكتب على قبره في لوح

ونخام هذا النظم :

يا صاحبي قُمْ فقد أطلنا أنحن طول المدي هجود^(١) ؟
 فقال لي : لن نقوم منها مادام من فوقنا الصَّعيد^(٢)
 تذكرُكم ليلةٍ لهونا في ظلِّها والزمانُ عيدُ
 كلُّ كانٍ لم يكن، تقضى وشؤمُهُ حاضرٌ عتيد^(٣)
 ياربُّ عفواً فانت مؤلّي قصر في أمرك العبيدُ

وهو يأسى على التحول إلى هذه الدار التي لا يقوم منها أهلها ، فقد خُتِمت بحجارة لا تُفَصَّح حتى يوم البعث والنشور . ويذكر نعيمه في دنياه ، ويراه كسحابة جادت ، وسرعان ما رحلت . ويفزع إلى ربه يطلب منه العفو والغفران . وأوصى ابن زُهْر الطيب الأندلسي المعروف أن تكتب هذه الأبيات على قبره :

تأملْ بحقِّك يا واقفاً ولا حظَّ مكاناً وقعنا إليه
 ترابُ الضريح على وَجْحتي كأنِّي لم أمش يوماً عليه
 أداوى الأنام حذار المنون وها أنا قد صرتُ رهنًا لديه

ويظهر أن الأندلسيين عُنوا بهذا الجانب ، فكثير منهم نظموا أشعارا وكتبوها على قبورهم ، وأيضا كثير منهم نعو أنفسهم حين توقعوا الموت ، وهتف بهم هاتفه ، واللسان الدين بن الخطيب يبكي نفسه :

بُعدنا وإن جاورتنا البيوتُ وجئنا بوعظٍ ونحن صموتُ
 وأنفاسنا سكنتُ دفعةً كجَهْرِ الصلاة تلاه القنوتُ

(١) هجود : نيام .

(٢) الصَّعيد : التراب .

(٣) عتيد : مهياً .

وكنّا عظاما فصرنا عظاما وكنّا نقوت فما نحن قوت^(١)

وفي كل مكان من العالم العربي نجد هذا الندب والنواح ، فالأماسة واحدة ، وكل يزيد فيها سطرًا أسود حزينًا .

ولعل شاعرًا عربيًّا لم يرث نفسه ويكيها ، كما رثى في عصرنا نفسه وبكاها أبو القاسم الشابي الذي عصف به مرض القلب وهو في ريعان شبابه ، فعاش يكي نفسه ويندبها ندبًا حارًا لا في مراثية أو مراثيتين ، وإنما في ديوان حافل بالوان الشجي والأسى ، وصف فيه كيف أوصد المرض الأبواب والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى إلا هاويته وحفرته . بل إن هذا المصير الذي لا بد وافتد عليه ومسته إليه أصبح يطلبه ، إذ يرى فيه منجاته من أوصابه وآلامه ، وهو يسمى هذا المصير « الصباح الجديد » وفيه يقول :

اشكّتي يا جراح واسكني يا شجون
مات عهدُ النواح وزمانُ الجنون
وأطلَّ الصباح من وراء القرون

فساعة الخلاص قد دنت ، وآن له أن يدفن آلامه ، ويغرق أحزانه في نخضم اللانهاية فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام يستطيع أن يلف جسده في ظلال الألم . إنه راحل وهو سعيد برحيله :

الوداع الوداع يا جبال المهوم
يا ضباب الأسى يا فيجاج الجحيم
قد جرى زورقي في الخضم العظيم
ونشرتُ القلاع فالوداع الوداع

وعلى هذه الشاكلة ما زال الشعراء قديما وحديثا ييكون أنفسهم ويدعون ربهم في ساعات احتضارهم ، وحين يرون الستار يوشك أن يسدّك على قصة حياتهم .

(١) عظام الأول : جمع عظيم ، والثانية : جمع عظم .

ندب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم

حينما أفل كوكب الرسالة الإسلامية الذي أضاء ما بين المشرق والمغرب هلع الصحابة رضوان الله عليهم ، وفزعوا لهذا النبأ المفجع ، وكاد عمر بن الخطاب أن لا يصدق ، لولا أن رَدَّه أبو بكر إلى صوابه . وخرج الصحابة يصلُّون عليه ويشيعونه إلى مثواه العَظِيمِ بقلوب واجفة وعيون باكية ، ويقال إن ابنته فاطمة كانت تندبه وتقول :

اغْبَرَّ آفاقُ السماء وكَوَّرَتْ^(١) شمسُ النهار وأظلم العصران^(١)
 فالأرضُ من بعد النبي كَثِيْبَةٌ أسفا عليه كثيرةُ الرِّجَفَانِ
 فليتبكَّرْ شرقُ البلاد وغربها ولييكِهْ مُضَرٌّ وكلُّ عَمَلٍ
 ولييكِهْ الطُّودُ المعظَّمُ جوَّهٌ^(٢) والبيتُ ذو الأستار والأركانِ
 يا خاتمَ الرسل المباركِ صِنُوهُ^(٣) صلِّ عليك منزل القرآن

واستحالت المدينة المنورة إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء ، واشتعلت نيران الحزن في كل صدر وفي كل قلب ، لولا أن أخذ الصحابة يتلون في القرآن الكريم مثل قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » « أفئتين متَّ فهم الخالدون ، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت » . فبدأت السكينة تنزل على نفوسهم ، وثابوا إلى رشدهم ليبلغوا رسالته المضيئة أطراف الأرض . وكان ممن ندبه فأحسن الندب حسَّان ، وفيه يقول :

(١) كورث : سقطت ، والعصران : الغداة والعشي إلى احمرار الشمس .

(٢) الطود : الجبل ، وجوه : منخفضه .

(٣) الصنو : القريب والنظير .

بَطِينَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدُ
وَلَا تَنَمَّجِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
وَوَاضِحُ آثَارٍ وَبَاقِي مَعَالِمِ
عَرَفْتُ بِهِ رَسْمَ الرِّسُولِ وَعَهْدَهُ
فَبُورَكْتَ يَا قَبْرَ الرِّسُولِ وَبُورَكْتَ
وَبَكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنَ عِبْرَةٍ
وَجُودِي عَلَيْهِ بِالْدموعِ وَأَعْوَلِي
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ عَمِّدٍ
مُنِيرٍ وَقَدْ تَعَقُّو الرِّسُومَ وَتَهْمِدُ^(١)
بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَضَعُهُ
وَرَبَّعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ
وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ
بِلَادٍ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمَدُ
لَفَقَدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرَ يَوْجَدُ
وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفَقَدُ

وقد أصبح القبر الكريم مسكناً يتطيب به المسلمون كلما حججوا أو اعتمرؤا ،
فهم يزورونه ويحجون إليه ليُغرقوا أبصارهم في مشاهدته وقلوبهم في رسالته .
لأنه النور الذي يغمر أفئدتهم والسعادة التي تملأ عقولهم . وإن زيارته لخلط كل
مسلم ومسلمة .

ودارت بالصحابة دورات من الزمن ، ثم جاءت خلافة علي بن أبي طالب
زوج فاطمة بنت الرسول ، فانقسم المسلمون ، وقتل علي بطعنة آثمة من يد بعض
الخوارج ، وأفضى الأمر إلى معاوية ، ورأى أن تكون الخلافة وراثية في أبنائه .
وأغضب ذلك طائفة كبيرة من المسلمين وخاصة أهل العراق ، وقالوا أين آل
البيت ؟ وأين الحسين بن علي حفيد رسول الله ؟ .

ولم تلبث عقيدة الشيعة أن ظهرت ظهوراً بيناً ، كان لها ظهور قديمة ،
ولكننا لا نصل إلى عصر يزيد بن معاوية حتى ترتفع شجرتها ، وتتطور الحوادث
ويصرع الحسين بن علي وهو في طريقه إلى شيعته بالكوفة بمكان يسمى « كربلاء »
ويُقضى على كل من تحدته نفسه من أبنائه أن يطلب الأمر من دون القائميين
عليه سواء أكانوا أمويين أم عباسيين .

وفي هذه الأثناء كان التشيع يتحول عقيدة ثابتة في نفوس من والوا علياً

وأبناءه ، وكان الشعراء يكثرُونَ من نظم المراثي فيهم . ومن أهم من نصب نفسه لهذه الغاية في العصر الأموي الكُثَمَيِّت شاعر زيد بن علي بن الحسين : فله ديوان يسمى الهاشميات ، وكله سخط على بني أمية ورثاء لآل البيت ، وأهم من رثاهم في العصر العباسي دِعْبِل في مراثيه المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خَلَّتْ من تلاوةٍ ومَنْزِلٌ وَخِي مُقْفِرُ العَرَصاتِ

ويريد بالمدارس الأماكن التي يدرس فيها القرآن الكريم ، فهذه المدارس عطلت كما عطل وعفا منزل الرضى النبوي . واستمر يذكر دور العلويين وأنها خلّت وأقفرت من أهلها ، ثم أخذ يذكر قبورهم في المدينة ومكة والكوفة وكربلاء ، وما زال حتى قال موجهاً الحديث إلى من يلومه في تشيعه :

مَلَأَكَ في أهلِ النبي فَانْهَمَ أَحِبَّائِي ما عاشوا وأهلُ ثَقَاتِي
فِي رِبِّ زِدْتِي من يَقيَنِي بِصِيرَةٍ وَزِدَّ حُبَّهُم يَا رَبِّ في حَسَنَاتِي
بِنَفْسِي أَنتم من كَهولٍ وَفَتِيَةٍ لَفَكَ عُنَاةٍ أو لَحْل دِيَاتِ^(١)
أَحِبُّ قَصِي الرِّحْم من أَجَلِ حُبِّكُمْ وَأَجْر فيكم أُسْرَتِي وَبَنَاتِي^(٢)
لَقَدْ حُقَّت الأَيام حَوْلِي بِشَرِّها وَإِنِّي لأَرْجو الأَمَن بعد وفاتِي
وَلولا الَّذي أَرْجوه في اليَوْم أو غَدٍ لَقَطَّعَ قَلْبِي إِثْرَهُم حَسْرَاتِي

والمرثية طويلة ، وكلها على هذا النحو بكاء لأهل البيت ومحبة ووجد شديد ، وهذه المرثية العامة في آل البيت كانت تقرن بها مراث خاصة كثيرة ، والطريف في هذه المراثي الشيعية أن شعراءها يتنافحون فيها عن عقيدة . ومن أجل هذه الناحية البارزة في تلك المراثي نجد لها تمتاز بحيوية قوية ، إذ العاطفة فيها تتعمق الشاعر ، ومن هنا تصبح مشاعره فؤارة حارة ، تقذف سيلاً ملتهباً .

ويدور بنا الزمن وإذا بنا في القرن الرابع للهجرة ، ويحقق العلويون لشيعتهم

(١) المنة : جمع عان وهو الأسير ، والديات جمع دية وهو المهرم الذي يدفعه من أجرم .

(٢) الرحم : القرابة .

شيئاً من حلمهم ، إذ يؤسسون الدولة الفاطمية بمصر والمغرب ، ويستولى بنو حمود العلويون على قرطبة من الأمويين ، ويصبح العراق وإيران تحت حكم البويهيين الشيعة ، فلا تجفّ الدموع التي تنحدر من آفاق الشيعة ، بل يجعلون لها مواسم معلومة ، كأن الدموع أصبحت رمز عقيدتهم ، وكأن الألم العنيف أصبح ترجمانها .

وكان أهم موسم للألم والدموع يوم عاشوراء ، وهو العاشر من المحرم ، الذي صُرع فيه قديماً الحسين فهذا اليوم كان يتحول إلى مأتم كبير في كربلاء ، إذ يلبس الشيعة المسوح ويبالغون في النوح والطم والبكاء . ولا نصل إلى سنة ٣٥٢ للهجرة حتى يأمر معز الدولة البويهى حاكم بغداد أهلها بأن يغلقوا حوانيتهم ويعطلوا أسواقهم في هذا اليوم احتفالاً به ، ولم يأمرهم بذلك فحسب ، بل أمرهم أيضاً بأن يتخذوا المسوح السوداء وأن يبكوا وينوحوا في طرقات البلد ، وأن تخرج النساء مشعثات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ويلدن في البلد بالنواح والطم ١ .

وهذا النواح الدائر على الحسين وآل البيت أنتج ما لا يحصى من مراث ، وهي مراث ملتاعة ولن نستطيع أن نعرض في هذا الكتيب كل ما قيل من ذلك . وقرأ هذه الأبيات للشريف الرضى يبكي جده الحسين وينوح عليه :

يا قتيلاً قوَّض الدهرُ به عمَدَ الدين وأعلامَ الهدى
قتلوه بعد علمٍ منهم أنه خامسُ أصحابِ الكِسَى^(١)
مرَّهً ما يدعو ولا غوثَ له بأبٍ برٍّ وجَدٍّ مصطفى
وبأَمٍّ رفعَ الله لها علماً ما بين نسوانِ الورى
أى جَدٍّ وأبٍ يدعوها ؟ جدٌّ ، يا جدَّ أغثنى ، يا أبا
يا رسولَ الله يا فاطمة يا أمير المؤمنين المرْتضى

(١) يشير إل ما يروى من أن رسول الله التفت في كساء يميني ببنت فاطمة ولف منه به عليا وفاطمة والحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عترتي وأهل بيتي .

كَيْفَ لَمْ يَسْتَعْجِلِ اللَّهُ لَهُمَ بِانْقِلَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجْمِ السَّمَاءِ^(١)
 حَمَلُوا رَأْسًا يَصَلُّونَ عَلَى جَدِّهِ الْأَكْرَمِ طَوْعًا وَإِبَاءً
 مَيِّتٌ تَبْكِي لَهُ فَاطِمَةُ وَأَبُوهَا وَعَلِيٌّ ذُو الْعَمَلِ
 لَوْ رَسُولَ اللَّهِ يَحْيَى بَعْدَهُ قَعْدَ الْيَوْمِ عَلَيْهِ لَلْعَزَا

ولا نرتاب في أن بعض هذه الأبيات كان يصيح به الناس في بغداد لحياة الشريف وبعد حياته . فكل بيت منها يثير ويحمس ، بل يفجر الدموع أنهاراً . فلا غرو أن تعاقب الشيعة من عصر الشريف الرضي إلى عصرنا ينظمون المراثي في الحسين ، وخاصة في بلدة « النجف » بالعراق ، فلكل شاعر هناك مراثيه التي تفيض بالألم . ويشارك ش شعراء النجف غيرهم من شعراء العراق المعاصرين ، ولحمد مهدي الجواهري قصيدة عنوانها « آمنت بالحسين » يقول فيها :

فِيائِنَ الْبَتُولِ وَحَسْبِي بِهَا ضِمَانًا عَلَى كُلِّ مَا ادَّعَى^(٢)
 وَيَابْنَ الَّتِي لَمْ يَضَعْ مِثْلَهَا كَثَلُكَ حَمَلًا وَلَمْ تُرْضِعْ
 وَيَابْنَ الْبَطِينِ بِلَا بَطْنَةٍ وَيَابْنَ الْفَقِي الْحَاسِرِ الْأَنْزَعِ^(٣)
 وَيَا غُصْنِ هَاشِمٍ لَمْ يَنْفَتَحْ بِأَزْهَرِ مَنْكَ وَلَمْ يُفْرِغْ^(٤)
 وَيَا وَاصِلًا مِنْ نَشِيدِ الْخُلُودِ خَتَامَ الْقَصِيدَةِ بِالْمَطْلَعِ
 يَسِيرُ الْوَرَى بِرُكَابِ الزَّمَا نَ مِنْ مَسْتَقِيمٍ وَمِنْ أَظْلَعِ^(٥)

(١) الرجم : الرمي بالحجارة .

(٢) البتول : فاطمة الزهراء .

(٣) البطين : من صفات علي بن أبي طالب ، ويقول إنه بطين بلا بطن أي بلا شر ولا نهم ، والحاسر : الأنزع الذي انحسر شعره عن جانبي وجهه .

(٤) يفرغ : يخرج من فرع .

(٥) أظلع : أخرج .

وَأَنْتَ تَسِيرُ رَكْبَ الْخَلْوِ د مَا تَسْتَجِدُّ لَهُ يَتَّبِعُ

وعلى هذا النحو لا يزال مصرع الحسين حتى عصرنا يوحى لشعراء الشيعة
بمراث هي الغاية في الحزن الممض والألم المحرق .

٥

ندب الدول

الدول العربية التي سقطت في خلال التاريخ الوسيط كثيرة ، وقد
كانت الدولة العربية زمن بنى أمية تشمل العالم الإسلامى كله ، وما
غربت هذه الدولة في أفق التاريخ وبزغت الدولة العباسية ، حتى تراءى
للعين أن المحيط الذى يضم هذا العالم ويربط بينه خيط واحد . وسرعان ما
طمع الولاة في الأطراف ، وطمحوا إلى الاستقلال ، ونشأت القوميات في الغرب
والشرق ، فإذا العالم الإسلامى دول لا تكاد تحصى . وما يرتفع نجم دولة ويبلغ
عنان السماء ، حتى يميل إلى الغروب ، ولا تقوم دولة ويشتهد هاعدها ، حتى
تشيخ وتهرم وهي لا تزال في شبابها . وكأنهم لم يستطيعوا أن ينسوا أيامهم
وحروبهم وتقسمهم قبائل في البهالية ، فأعادوها جندعة منذ العصر
العباسى ، بل من قبله ، لولا قوة الأمويين وحسن تدبيرهم . وما كاد العباسيون
يستولون على العرش حتى بدأ التصدع واضحاً في بناء الدولة ، وأخذ العرب لا
يطمئنون ولا يهدئون في صقع من أصقاع العالم الإسلامى وأخذت الدول تقوم ثم
تسقط متعاقبة ، وكثير من الدول كان يشيع بالعبرات وأشعار الشعراء .

وأول دولة بكهاها الباكون دولة بنى أمية التي سقطت سنة ١٣٢ للهجرة ،
وأهم من بكهاها أبو العباس الأعمى الشاعر المكشى الذى أخذ يرسل دمه على
خلفائها ، ويثن لهم ولمولتهم أنيناً ، وفيهم يقول :

ليت شعري أفاحَ رائحةُ المِسكِ وما إن أخال بالخليف^(١) إنسى
حين غابت بنو أمية عنه^(٢) والبهليل^(٣) من بني عبد شمس^(٤)
خطباء على المنابر فرسا^(٥) ن عليها وقالة^(٦) غير خرس

وله فيهم أشعار ومراث أخرى ، وهي كلها تفيض بالعاطفة الصادقة .
ونمضي في العصر العباسي ، وإذا بهرون الرشيد ينكب البرامكة نكبتهم
المشهورة ، وكانوا قد استولوا على كل مرافق الدولة ، وعظم سلطانهم ، وجمعوا
الشعراء من حولهم يغدقون عليهم عطاياهم ، فلما دالت دولتهم وقف الشعراء
يبيكونهم ويسفحون الدمع عليهم ، وفيهم يقول آشجع :

كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا

ويقول سلم الخاسر :

هوت أنجم الجدوى^(١) وشلت يد الندى وفاضت بحور الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمك بها يعرف الحادي طريق المسالك

ويقول الرقاشي ، وقد ذكر الفضل وأخاه جعفر :

ألان استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي^(٢)
قلل للعطايا قد أمنت من السرى وطى الفياق قد قددا بعد قدقد^(٣)

(١) الخيف : ما انحدر من الجبل ، وبمكة أغنياف مختلفة لكثرة الجبال حولها ، وكلها
تنهى إلى بطائعها .

(٢) البهليل : جمع بهلول وهو السيد ، وبني عبد شمس : بنو أمية ، وعبد شمس : أحد
أجدادهم في الجاهلية .

(٣) قالة : جمع قائل .

(٤) الجندوى : العطاء .

(٥) يجدي : يملأ ، ويجتدي : يستملأ ويستمنح .

(٦) القدقد : القلاة .

وَقُلْ لِلْعَطَايَا بَعْدَ فَضْلٍ تَعَطَّلَى وَقُلْ لِلرَّزَايَا كُلَّ يَوْمٍ تَجَدَّدَى
وَقُلْ لِلْمَنَايَا قَدْ ظَفَرَتْ بِجَمْفَرٍ وَلَنْ تَظْفُرَى مِنْ بَعْدِهِ بِمَسْوَدٍ

ونُظِمَ في البرامكة شعر كثير ، وخاصة لأن الشعراء من الفرس بكوا فيهم زوال السلطان من أمتهم وتحوله إلى غيرهم .

ولما قتل المتوكل الخليفة العباسي المشهور نزل الحزن بقلب شاعره البحرى ، وكان قد قتله وليُّ عهده وطائفة من الترك الذين استكثر منهم المعتصم ، واستبدل بهم العرب والفرس جميعاً ، ولم يلبثوا أن سيطروا على الدولة .

وفكر البحرى فيما صارت إليه الدولة من ذلك ، وفكر في الفرس وما قدموه لها من خدمات ، فهم الذين أقاموها ، وهم الذين رعوها خير رعاية ، حتى إذا أفل نجمهم أخذت الدولة تتكس نحو مغربها . ومرَّ البحرى بالمدائن ورأى إيوان كسرى : « قصره الأبيض » وما بقى من أطلاله ورسومه ، فوصفه وصفاً بليغاً رأى في أثنائه صانعيه . ولد بهم ، ومن قوله فيهم وفيه :

حَضَرْتُ رَحْلِيَّ الْمَوْمُ فَوَجَّهْتُ مَتُّ إِلَى أَيْبُضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي^(١)
أَتَسَلَى عَنْ الْخَطُوطِ وَأَسَى لِحُلَّةٍ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ^(٢)
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخَطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخَطُوبُ وَتُنْسِي^(٣)
وَهُمْ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ مُشْرِفٍ يُخَسِرُ الْعِيُونَ وَيُخْسِي^(٤)
وَكَأَنَّ الْجُرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ وَإِخْلَالِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ^(٥)
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ الْإِيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَا تَمَّا بَعْدَ عُرْسِ

(١) المنس : الناقة القوية .

(٢) آسى : أحزن ، وآل ساسان : أكاسرة الفرس ، ودرس : دارس وعاف .

(٣) التوالى : المتتالية .

(٤) خافضون : راغلو العيش ، والعالي : القصر الأبيض ، ويخسر : يضعف ، ويخسى : يؤلم .

(٥) الجرماز : بناء بجوار القصر ، والرمس : القبر .

ونقل بعد ذلك نقلاً بديعاً صورة رآها منقوشة على حيطان الإيوان ، وهي تصور معركة بين الفرس والروم ، انتصر فيها الأولون . ثم استمر يصور أيادي الفرس على العرب ويكيهم .

وما زال العباسيون يعانون من الترك وغيرهم حتى غزا هولاكو بغداد وخرّبها ، وأزال خلافتهم ورمى بها وبالتاريخ الباهر العظيم في دجلة ، فبكى الشعراء من الأعماق ، ومن خير من بكى وناح شمس الدين الكوفي ، وفيهم يقول بأحدى مرثيته :

ما للنازل أصبحت لا أهلها	أهل ولا جيرانها جيرانى
أين الذين عهدتهم ولعزمهم	ذلاً تخزّ معاقده التيجانـ
كانوا نجوم من اقتدى فعلهم	يبكى الهدى وشعائر الإيمان
أفنتهم غير الحوادث مثلاً	أفنت قديماً صاحب الإيوان ^(١)
ما زالت أبكيهم والتم وحشة	لجأهم متهمــــــم الأركانـ
حتى رمى لى كل من ما وجدّه	وجدى ولا أشجانه أشجاني

ومن الدول التى أكثر الشعراء من بكائها والنواح عليها دول ملوك الطوائف بالأندلس فإنهم لما استغاثوا بـيوسف بن تاشفين ملك المرابطين فى المغرب ضد الأسبان الشماليين فى بلادهم ، ورأى ما هم فيه من ضعف ووهن شديد ، فكر فى الاستيلاء عليهم حتى يحفظ للإسلام والعرب هذا الجزء الذى يكاد يتداعى ، ولم يلبث أن التقمهم ملكاً وراء ملك ودولة وراء دولة .

وشيع شعراء الأندلس هذه الدول بالعبرات الغزار ، إذ كانوا يرعونهم غير رعاية ، وأهم الدول التى رثوها وبكوها دولة بنى الألفطس فى بطليوس ودولة بنى عباد فى إشبيلية . أما الأولى فرثاها ابن عبدون بقصيدة طويلة طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بِسَدِّ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ^(١) فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ^(٢)
مَا لِلْيَالِ ؟ أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَنَا^(٣) مِنْ اللَّيَالِ وَخَاتَمَهَا يَدُ الْغَيْرِ^(٤)

واستمرسل يتحدث عن الدول التي دالت من الأكاسرة والعرب في عصورهم
المختلفة حتى انتهى إلى بني الأفطس فندبهم بمثل قوله :

بَنِي الْمَظْفَرِ وَالْأَيَّامُ مَا بَرِحَتْ مَرَّاحِلًا وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ^(٥)
سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَلَا حِلَّتْ بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَارِ الْعُمَرِ^(٦)

وأما دولة بني عباد ، ففعل خير من تفجع عليها ابن اللبانة ، وقد حمل
يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد آخر ملوكها مقيداً في أغلاله مع من
بقي من أسرته إلى أغصمات بالقرب من مراکش . ووقف ابن اللبانة نفسه على
بكائه وبكاء أسرته ، وله قصيدة بديعة يصف فيها خروجه من إشبيلية محمولا
على سفن ابن تاشفين بنهر الوادي الكبير الذي يجري أمام بلدته ، وفيها يقول :

تَبْكِي السَّمَاءُ بُزْنَ رَائِحِ غَادٍ عَلَى الْبَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عِبَادِ^(٧)
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ^(٨)
يَاضِيفُ أَقْفَرِيَّتُ الْمَسْكَمَاتِ فَخُدَّ فِي ضَمٍّ رَحْلُكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
وَيَا مُؤْمِلَ وَادِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ خَفَّ الْقَطِينِ^(٩) وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِ
نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ فِي الْمُنْشَاتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ^(١٠)

(١) من أشال العرب : لا تطلب أثراً بعد عين ، وما البكاء : ماذا يفيد البكاء .

(٢) الغير : أحداث الدهر .

(٣) سحقا : يمدا ، الفابر هنا : المستقبل .

(٤) المزن : السحاب المطر ، والبهاليل : السادة .

(٥) الأوتاد : الجبال ، يقول إنهم كانوا أوتاد الدول في الأندلس كما أن الجبال أوتاد الأرض .

(٦) القطين : السكان .

(٧) المنشآت : السفن ، والأحاد : القبور .

والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أرباد^(١)
 حطّ القناع فلم تُستَرْ مُحَدَّرَةٌ ومُرَّتْ أوجهٌ تمزيق أرباد^(٢)
 حان الوداع فضجّت كلُّ صارخة وصارخ من مُقدّام ومن فادِ
 سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
 كم سال في الماء من دمعهم وم حملت تلك القطائع^(٣) من قطعات أكباد

وما نظن شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ابن اللبانة في بكاء الدولة
 العبادية فقد اقتطع بكاءه عليهم من فؤاده .

وعلى نحو ما بكى شعراء الأندلس دول الطوائف ببلادهم بكى شعراء مصر
 بعض الدول التي لمعت ثم أفلت في أفقهم ، وأول دولة إسلامية بكوها
 دولة الطولونيين ، وفيهم يقول بعض الشعراء :

كانوا مصاييحاً لدى ظلم الدُّجى يسرى بها السَّارُون في الإدلاج^(٤)
 انظر إلى آثارهم تَلَقَى لها علماً بكل أنيَّةٍ ونجاج^(٥)
 ولما زالت الدولة الفاطمية بكى عمارة اليمنى عليها بكاء ، فيه لدع وحرارة ،
 وتلك قطعة من بكائه عليهم وندبه لهم :

رَمِيتَ يا دَهْرُ كَفَّ الجِدَّ بالشَّلَلِ وجيِّدهُ بعد حُسْنِ الحَلَى بالعَطَلِ^(٦)
 هدمتَ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ سقيتَ مهلاً^(٧) أما تمشي على مهَلٍ

(١) العبرين : ضفَى النهر ، واعتبروا : تعجبوا .

(٢) الأرباد : الثياب ، وهو هنا يعصور نساء بني عباد وما صنمته أثناء الرحيل من سفور ولطم
 للرجوه وخش لها بالأظافر .

(٣) القطائع : السفن .

(٤) الإدلاج : السير بالليل .

(٥) الأنية : الطريق في الجبل ومثلها الفج وجمعه فجاج .

(٦) العطل : التجرد من الحل .

(٧) المهمل : النحاس المذاب ، وهو من عذاب أهل النار المذكور في القرآن .

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب النار غير ولى
أئمة خلّقوا نوراً فنورهم من نور خالص نور الله لم يقل^(١)

وكان حرباً بعمارة أن يفرح كما فرح المصريون بزوال الدولة الفاطمية
وتحول السلطان إلى صلاح الدين الذى أنقذ مصر من براثن الانحلال
الذى انتهت إليه هذه الدولة . وما نشك في أن تشيع عمارة للفاطميين هو الذى
جعل على بصره غشاوة ، فلم يشارك المصريين في أفراحهم بسقوط تلك الدولة .
ونمضى بعد الأيوبيين إلى المماليك إذ يقضى عليهم السلطان سليم العثمانى سنة
٩٢٣ للهجرة ، ونرى ابن لياس يصيح لزوال دولتهم :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عمت مصيئته الورى
زالت عساكرها من الأتراك في غمض العيون كأنها سينّة الكرى

وتحكم مصر بعد ذلك بالعثمانيين حكماً جائراً كله بطش واستبداد
واستنزاف لخيراتها ودمائها ويزولون كما زالت الأسرة العلوية بعدهم . وطبيعى
أن لا يبكى العثمانيين ولا الأسرة العلوية باك فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم
بل ذهبوا مع فرح الشعب العميق بزوالهم لما أشاعوا من ظلم وفساد في
الحكم وبغى وطمع شديداً .

(١) يقل : يأفل ويفرب .

ندب البلدان

وإذا كان الشعراء يذكرون بعض الدول الزائلة فإنهم يذكرون أيضاً البلدان حين نزلت بها الحوادث القاصمة ، أو أملت بها بعض الدول الغاصبة . وفي كل مكان من العالم الإسلامي تجد هذا اليكاء ، في الشرق والغرب . أما في الشرق فلعل أول بلدة حاقت بها كثرة ساحة هي بغداد ، إذ حرقها ابن طاهر قائد المأمون أثناء حصاره لأخيه الأمين ، فقد سلب عليها مجانيقه ، فتحولت ناراً أنته على كل شيء فيها ، وكأن قصورها التي طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئاً مذكوراً . وأثرت هذه الحادثة المقيجة في قلوب كثير من الشعراء ، فقال بعضهم يندبها ويبيكها :

بكت عيني على بغداد لما
أصابتها من الحساد عين
فأنت أهلها بالمنجنيق
وقائمة تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصحابي
وقائلة تقول أيا شقيق
ومغرب بعيد الدار ملق
بلا رأس بقارعة الطريق
ولا ولد يهوج على أيو
وقد هرب الصديق عن الصديق

وليست بغداد وحدها التي يبكها الشعراء في العصر العباسي فقد بكوا البصرة حين اقتحمها الزنج على سكاتها ، ويظهر أنهم كانوا يسومونهم الخسف والعذاب ويكلفونهم من العمل فوق طاقتهم ويحملون ، فائتمروا بهم ، وما هي إلا أن ثاروا عليهم ، فقتلوهم وخرّبوا ديارهم وباعوهم في الأسواق بيع العبيد . وأثر ذلك في نفس ابن الرومي تأثراً بليغاً ، فنظم قصيدة طويلة في بكاء البصرة وأهلها يقول فيها :

كَمْ أَغْصُوا مِنْ شَارِبٍ بِشَرَابٍ كَمْ أَغْصُوا مِنْ طَاعِمٍ بِطَعَامٍ
 كَمْ ضُنِينَ بِنَفْسِهِ رَامَ مَنْجَى فَتَلَقَّوْا حَبِينَهُ بِالْحَسَامِ
 كَمْ أَخْرَقَ قَدْ رَأَى عَزِيزٌ بَنِيهِ وَهُوَ يُغَلَى بِصَارِمٍ صَمَامٍ
 كَمْ رَضِيعَ هُنَاكَ قَدْ فَطَمُوهُ بِشَبَابِ السَّيْفِ قَبْلَ حِينِ الْفَطَامِ
 كَمْ فَتَاةٍ بِخَتَامِ اللَّهِ بَكَرٍ فَضَحَوْهَا جَهْرًا بِغَيْرِ اكْتِمَامِ
 كَمْ فَتَاةٍ مَصُونَةٍ قَدْ سَبَّوْهَا بَارِزًا وَجْهَهَا بِغَيْرِ لَثَامِ
 صَبَّحُومَ فَكَابَدَ الْقَوْمَ مِنْهُمْ طَوَّلَ يَوْمَ كَأَنَّهُ أَلْفَ عَامِ

وصورَ تحريقَ الزنج لقصور البصرة ، وبكى رسومها وأطلالها ومسجدها ،
 واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ، ودعاهم أن ينفروا خيفاً وثقالاً ،
 حتى ينتقموا منهم شر انتقام .

ونمضى إلى عصر الحروب الصليبية فنجد الشعراء يبيكون مدن الشام التي
 كانت تسقط في أيدي الصليبيين ، ولم يبيكو مدينة كما بكوا بيت المقدس حين
 استولى عليها الفرنج سنة ٤٩٢ للهجرة ، ومن طريف ما قيل فيها :

أَحَلَّ الْكُفْرُ بِالْإِسْلَامِ ضَيْمًا يَطُولُ عَلَيْهِ لِلدِّينِ النَّحِيبُ
 فَحَقُّ ضَائِعٌ وَحِمَى مُبَاحٌ وَسَيْفٌ قَاطِعٌ وَدَمٌ صَيِّبٌ^(١)
 وَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْسَى سَلِيًّا وَمَسْلَعَةٍ لَهَا حَرَمٌ سَلِيبُ
 أَمَّا لِلَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَقٌّ يَدَافِعُ عَنْهُ شُبَّانٌ وَشَيْبُ

على أن موجة الصليبيين لم تلبث أن دُفعت بقوة إلى الوراء ، ولم تلبث أن
 حلت أشعارُ الفتح والظفر محل أشعار الندب والرتاء .

ومن البلاد التي بكأها المسلمون صقلية حين سقطت في أيدي النورمان حول
 منتصف القرن الخامس للهجرة ولشاعرها ابن خديس قصائد مختلفة يرثيها فيها
 ويندبها ، ومن قوله في بعض قصائده :

أرى بلدى قد سامه الرومُ ذلةً وكان بقوى عزه متقاسما
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذلك الخوف منهن لاسما

وفي نفس التاريخ هاجم البدو القيروان وخربوها ، وبكائها شعراؤها هي
الأخرى ، ومن قول شاعرها ابن شرف :

آم للقيروان أنه شَجْوٍ عن فؤادٍ بجاحم الحزن يَصَلَّى
حين نحاتت به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخلَّى
بعد يومٍ كأنما حُسِرَ الخَدُّ قُ حُفَاةً به عوارى رَجَلَى
مُزَّقُوا في البلاد شرقاً وغرباً يسكبون الدموع هَطْلاً وَوَبْلاً

ولعل قطرا إسلاميا لم تُبِكَ بلدانه ومدنه كما بُكِيت مدن الأندلس وبلدانها ،
فقد أخذ الأسبان الشاليون يستخلصونها لأنفسهم ، وأخذت تتساقط منذ عصر
ملوك الطوائف في حجبورهم كما تتساقط أوراق الخريف . وكانت كل مدينة
تسقط لا تعود أبداً ، والمسلمون يرون ذلك رأى العين ، يرون ما يهدد ديارهم من
غزو ودمار ، وكلمتهم متفرقة وأهواؤهم غير مجتمعة ينابذ الأخ أخاه وتنازله المدينة
أختها ، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر . وما زال الشعراء هنالك يحذرون
وينذرون ويستغيثون ويستنصرون ، وكلما ضاعت بلدة أو مدينة ذرفوا الدموع
حارة سخيّة . ومن البلدان التي أكثر الشعراء من رثائها وندبها حين استولى عليها
الأسبان طَلَيْطَلَّةً وبلَنْسِيَّةً وشاطبة وقُرْطبة وجِيَّان وإشبيلية ، ومن أروع
ما بُكِيت به الأخيرة قول أبي البقاء الرُّندى ، وقد عرض لما سُلِب من البلاد قبلها :

اسألْ بَلَنْسِيَّةً ما شأنُ مَرْسِيَّةٍ وأين شاطبةٌ أم أين جِيَّانُ
وأين قرطبةٌ دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين رَحْصٌ^(١) وما تحويه من نَزْوٍ ونهرها العذبُ فياضٌ وملآنُ

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبْدَان
 ورُبَّ أُمٍّ وطفْلٍ حيل بينهما كما تفرّقُ أرواحُ وأبدَانُ
 وطفلةٌ مثل حُسن الشمس إذ طلعت كأنما هي يا قوتٌ ومرْجانُ
 يقودها العِلْجُ^(١) للسكر وه مكرَهةٌ والعين باكيةٌ والقلب حيرانُ
 لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

وبدور الزمن بنا دورات حتى تصل إلى العصر الحديث ، فإذا القصة تعاد
 فصولها ، وإذا أوروبا الشرقية تجمع أمرها أمام الخلافة التركية تريد أن تخرجها
 من ديارها ، وتردها إلى آسيا على أعقابها وتكون حروب ودماء . وتُغلبُ تركيا
 على أمرها من حين إلى حين ، وتضيق بعض بلدانها . ولشوقي قصيدة يبكي فيها
 « أدِرنَة » حين استولى عليها البلغار سنة ١٩١٢ للميلاد ، وقد سماها الأندلس
 الجديدة ، إشارة إلى أن الكارثة فيها تجديد لكارثة المسلمين في الأندلس العربية ،
 فهما جرحان ، جرح قديم لم يلتئم بعد ، وجرح لا يزال يتزف بالدماء . وفي
 هذه القصيدة يقول :

عيسى سبيلك رحمةٌ ومحبةٌ في العالمين وعصاةٌ وسلامُ
 اليوم يَهْتَفُ بالصليب عصابةً هم للإله وروحه ظلامُ^(٢)
 خلطوا صليبك والخناجر والمدى كلُّ أداةٍ للأذى وحِمَامُ
 أو ما ترام ذبحوا جيرانهم بين البيوت كأنهم أَعْنَامُ
 كم مَرَضِعٍ في حِجْرٍ نعمته غدا وله على حدِّ السيوف فِطَامُ
 وصبيّةٌ هتكت خيلةً طهرها وتناثرت عن نورهِ الأكامُ^(٣)
 وأخي ثمانين استبيح وقارهُ لم يُفْنِ عنه الضعفُ والأعوامُ

(١) العِلْج : الكافر من المجرم .

(٢) المصائب : جمع عصابة وهي الجماعة ، وظلام : جمع ظالم .

(٣) الخيلة : الروضة والشجر الملتف .

ولما نكسب الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٦. وسلطوا عليها مدافعهم وقذائفهم ،
وأحالوها أنهارا من الدم وتلالا من الرماد والحراب بكأها شوقي بقافيته المشهورة ،
وفيها يقول :

رَباعُ الخُلْدِ وَيَحْكُ مادهاها أَحَقُّ أَنَّها دَرَسَتْ أَحَقُّ
وَهَلْ عُرِفَ الجَنانُ مَنْصُذاتُ^(١) وَهَلْ لَنَعِيْمِهِنْ كَأَمْسٍ نَشَقُّ
وَأَيْنَ دُمَيِّ المَقاصِرِ مِنْ جِجَالِ^(٢) مُهْتَكَةٌ وَأَسْتارُ نَشَقُّ
بَرَزْنَ وَفِي نِواحِي الأَيْكِ^(٣) نارُ وَخَلَفَ الأَيْكُ أَفراخُ تَزَقُّ
بَلِيلُ القَذائفِ وَالْمنايا وَراءَ سَمائِهِ خَطَفُ وَصَقُّ
إِذا عَصَفَ الحَديدُ أَحْمَرُ أَفَقُ عَلى جَنبائِهِ واسودَّ أَفَقُ
وَالْحَرِيَّةُ الحِراءُ بابُ بِكُلِّ يَدٍ مُضْرَجَةٍ يَدَقُّ

وتجاوبت مع شوقي وشعراء العروبة في الشرق صبيحات إخوانهم شعراء
المهجر في الغرب ، ييكون ويصيحون ويولولون على ما أصاب دمشق من فظائع
الفرنسيين ، ولنسيب عريضة من منظومة :

صَلِيلُ سَلاحٍ وَقَرَعُ طَبولُ وَجُنْدُ قُساةٍ تَسوقُ الحَولُ
وَفوقَ النِياقِ جَماةُ القَبِيلِ تَدَلُّوا قَتيلًا بِجَنبِ قَتيلِ

ولعل بلدا عربيا في عصرنا لم يبكه الشعراء كما بكوا فلسطين الشهيبة ، التي
سالت دماء أبنائها في ساحاتها ، وشرّد اليهود البقية الباقية منهم في أطراف العالم
العربي وعلى المشارف والحدود . ولا تزال المأساة ، أو قل لا يزال مآتمها قائما ،
والعالم الإسلامي كله يليس السواد من أجلها ، ويعلم الحداد على ما أصابها
وأصاب العرب فيها .

(١) منصذات : منسقات .

(٢) المقاصر : الغرف ، والجبال : جهاز العروس .

(٣) الأيك : الشجر الكثير المتجمع .

ومنذ وعْد « بلفور » لليهود والعرب ينتظرون اليوم المشئوم ، يوم خروج أبناء عمومته من ديارهم ، وهو ما لم يحدث في العالم لا قديما ولا حديثا ، فلم نسمع قبل اليوم أن أمة بغت على أخرى ، وسلبتها وطنها وخلدتها وفراديسها ، يعينها في ذلك من يتشدقون بالحريات . وحرّ ذلك في أنفس العرب فأبوا أن يتركوا عرينهم دون أن يلطخوه بالدماء ، وتعاقدت دولهم ، ونخاضت غمار حرب رجفت لها الأرض والسماء ، وقد تعالى في أثنائها صياح الشعراء في البلاد العربية ، من مثل قول علي محمود طه من قصيدته « نداء الفداء » :

أخى جاوزَ الظالمونَ للدى لحقَّ الجهادُ وحقَّ الفدا
أنتركهم يفضبون العروب ة تجدّ الأبوّة والشؤددا
وليسوا بغير صليل السيوفِ يحييون صوتا لنا أو صدّى
فجرّد حسامك من غمدِهِ فليس له بعدُ أن يُفمّدا

والقصيدة كلها على هذا المنوال صراخ في العرب حتى يسارعوا لنجدة فلسطين التي تسلمها اليهود للجبين ، وهم يشعلون لها مدامهم على أعين العرب من مسلمين ومسيحيين .

ومنذ وقعت هذه الحرب المشئومة وخرج أهل فلسطين من ديارهم ، وشعراء العرب في مختلف بلدانهم ييكون الوطن الضائع ، ويتفجعون عليه ، فهذا زكي المحاسني يهتف في دمشق :

ما هزّ منا لى نموت ونفنى ونُبكى الحياة إن نحن عشنا
نحن قومٌ ما نام فينا على الضيّ م أبى ولا على الدهر هُنا
كفكف الشعر عن مرأى فلسط ين فشرّ الدماء أبى وأغنى
غدنا المرتجى كما رمت آتِ بانتقام سينسل العار عنا

ويرتفع هتاف الشعراء في كل مكان ، فمن ذلك قول عادل الغضبان في قصيدة له دعاها : « صوت العرب » :

كفأك يا غَرْبُ طغياناً ومفسدةً ورَمْيَك الشرقَ بالويلات والحربِ
هذى فلسطينُ ما زالت مضرجةً أرجاؤها بدمٍ في الله منسكبِ
شردتَ أبنائها ظالماً وسقتهمُ إلى الردى عُصْباً تُلقَى على عُصْبِ
فلا الأذانُ ولا الناقوس يُسمعا وحى الهدى في فم الإسلام والصُّلبِ

ويقول محمد عبد الغنى حسن من قصيدة طويلة :

أرضَ البطولة هذه عبراتى تهذى إليك وهذه حسرائى
دهمتك من عُصْب الزمان بطانةً أفاقةً منهومةً الشهواتِ
لا تستقرّ على الثرى أحداقهم إلا على العدّوات والغاراتِ
كانوا على الإسلام منذ قيامه حرباً وكانوا مبعث النكباتِ

ولفدوى طوقان قصيدة بعنوان « بعد الكارثة » تنضج فيها على الوطن
السليب ، ومن قولها فيها :

يا وطنى ما لك يُخنى على روحك معنى الموت معنى القدامِ
جرحُك ما أعق أغواره كم يتنزى تحت ناب الألمِ
ستنجلى الغمرة يا موطنى ويمسح القجرُ غواشى الظلمِ
والأملُ الظالمى مها ذوى لسوف يُروى بلهيبِ ودمِ

ونحن نأمل معها أن تنكشف هذه الغمة سريعاً عن صدر فلسطين ، وأن تعود
إلى أبنائها مشرقة الجبين ، لم تزدّها المحنة التى ألمت بها وصهرتها صهراً إلا قوة فوق قوة
وقلمية فوق قلمية . إنه الصباح الذى ينتظره العرب جميعاً ، وإنهم لواصلون إليه
مهما دجت الدنيا ومهما طال الطريق .

لفصل الثاني

التأبين

١

معنى التأبين

أصل التأبين الثناء على الشخص حيا أو ميتا ، ثم اقتصر استخدامه على الموتي فقط ، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت ، فيذكروا مناقبه ، ويعدّدوا فضائله ، ويُسْهِروا محامده . وشاع ذلك عندهم ، ودار بينهم ، وأصبح في سننهم وعاداتهم ، ولو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين .

ونحن نجد دائرا على السنة الرجال والنساء ، فهم جميعا لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين ، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه ، كأنهم لا يكونه فقط من أجل رابطة الدم التي تربطهم به ونزوله وراء أستار وأحجار ، بل هم يكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية ، يكون فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الحار وإغاثة الملهوف والحلم والأنفة والحزم وركوب الصعاب والسباحة والقصاحة والسيادة والشرف وكل ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال .

وكأنما كان غرضهم من تأبينهم أن يصوروا تصويرا تاما مدى الخسارة والمصيبة في الفقيد . ونرى هذا واضحا في تأبين النساء لأنحويها حضر ومعاوية ، فهي تندبهما بقلب محترق من جهة ، وهي تؤبنيهما لتصور فضائلهما وتوضح ما خسرتيه فيهما قبيلتهما .

وكان من عقائدهم أن القليل لا يهدأ في قبره ، حتى تصيب القبيلة

من دم قاتليه ، وكانوا يحرمون على أنفسهم الخمر وكل الملذات إلى أن يدرکوا وترهم ، ودفعهم ذلك إلى أن يكبروا مصيبتهم في القتل وأن يسبقوا عليه من الخلال والحمد ما يشعل الحرب ويؤجج نيرانها فلا تنطفئ أبداً .

وما حياتهم في الجاهلية إلا سلسلة حروب ومعارك طاحنة ، فكانوا لا يدفنون قتيلًا إلا ليستعدوا لدفن أخيه وبكائه وتأبينه والإشادة بطولته وكرمه ، وما أعطى لقبيلته من ماله وروحه . ولم يؤبنوا أبطالهم وقتلاهم فحسب ، بل أبناوا أيضاً أشرافهم وساداتهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخرا بهم واعتزازا . وكانوا يحبرون على القبور ، فمن استعاذ بقبر سيد أو شريف حمل أهله متفرمة ، وكثيراً ما ذبحوا على أجدادهم لإبلهم وخيلهم ، كأنما يريدون أن يرضوا عظامهم ، وأن يعترفوا لهم بوفرة ما ذبحوا للناس من إبل وأنعام . ودائماً نجدهم يستسقون لهم السحاب ، ويستزلون لهم الغيث حتى تُسرِع قبورهم وتصبح رياضاً عاطرة .

وكل ذلك احتفال بالميت وتمجيد ، وبقياساً عليه وعلى ذكراه ، وكان أهم ما يخلده في رأيهم هذه الأبيات من الشعر التي بصوغ فيها الشاعر محاسنه ومناقبه ، وكأنه يريد أن يحفرها في الأذهان حفراً ، حتى لا تمحى على مر الزمان ، وحتى لا يصيبها شيء من زوال أو نسيان . إنها كل ما يملك ليبقى على الميت بينهم وليجعله دائماً ماثلاً أمامهم .

٢

تأبين الخلفاء والوزراء

هذه الصورة التي ذكرناها للتأين في الجاهلية ، والتي كانت تعتمد على الخلال والمناقب التي يحترمها العربي القديم ويحلمها في الرجل ، والتي تجمعها كلمة المروءة ، لم تلبث أن دخلت عليها تعديلات مع ظهور الإسلام ورسالة السمحة فإنه عندئذ في المثل الأعلى عند العرب ، ورفع كثيراً من الخلال ووضع مكانها

خلالا جديدة .

لقد كان العربي في الجاهلية يعد سفك الدماء حسنة كبرى من الحسنات ، فجاء الإسلام محرماً للدماء رافعاً لما كان منها في القديم ، كما رفع كثيراً من المآثر الجاهلية ، وأقام مكانها مآثر جديدة من العدل والتقوى والزهد في الحياة ، وإخلاص الوجوه لله . وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها في الرثاء ، فقد أخذت تحلّ فيه صفات لم يكن العربي الجاهلي يعنى بها ولا كان يفكر فيها . ويتضح ذلك في تأيين الخلفاء ، إذ كانوا أصحاب الدولة الإسلامية والقائمين على نشر تعاليمها ، واحترام سنّها في الجزيرة العربية وخارج الجزيرة . فطبيعي أن يفكر الشاعر أول ما يفكر حين يلم برثائهم في الدولة من بعدهم وما سلكوه في حكمهم من عدل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته فهم خلفاؤه ، وهم أمناؤه على المسلمين من حولهم وعلى رسالته وما تضيء به النور من مثل صفات نبوية .

وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق الذي حمل لواء الدعوة الإسلامية من بعده وتناول مصابيحها ، فأضاء بها شرق الجزيرة وغربيتها : بلاد فارس والشام بعد أن لم تقات العرب المبعثر في الجزيرة ، ودفعه دفعا إلى الخارج ، فتراموا كاللوج ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، وكانما ناولهم بيده الكريمة الكرة الأرضية ليزرعوا في أي مكان شاءوا الدعوة الإسلامية ، ويسجنوا لله ولأنفسهم ثمارها ، وفيه يقول حسان مؤبنا :

إذا تذكّرت شجّوا من أخى ثقة فاذا ذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدّها بعد النبي وأوقاها بما فعلا
الثاني اثنين والحمود مشهده وأول الناس طراً صدق الرسل
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

وحسان يتحدث في تأيينه لأبي بكر عن فضائله المعروفة عند المسلمين ، إذ يعرض لمنزله من الرسول ، وكيف كان صاحبه في الغار وفي الهجرة من مكة

إلى المدينة ، ويذكر أنه كان أول المصدقين به وبرسالته ، ولذلك دعى الصديق . وكل ذلك ذائع مستفيض عن أبي بكر ، أما تقواه وزهده وصالح سعيه في الدين وإذلاله للدنيا وإعرازه للآخرة ، فكل ذلك مشهور بالوجه الصحيح والشهادة الثابتة ، وأما رفقه بالمسلمين وعدله بينهم وما شئت من سيرة ذكية نقية طاهرة ، فالأمة الإسلامية مجمعة عليه والدلالة اليقينية قاطعة به . ننصّر الله وجهه .

وليس هناك ريب في أن تأبين حسان جديد في اللغة العربية ، فهو لم يتحدث حديث الجاهليين عن موتاهم ، وإنما تحدث حديث المسلمين ، تحدثت بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية ، فيها البر والعدل والتقوى والإسلام ، وفيها الخير ومحبة الرسول وإيثاره على كل الأصحاب والأنصار . وبهذه الخلال والمناقب الجديدة كانت فاجعة الإسلام والمسلمين فيه .

وتخلفه عمر ، فسار في الناس بسيرته وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبله واقتعد من العدل والزهد في الدنيا مكانا تنقطع الرقاب دونه . وما زال يحفظ الدولة بل ما زال يمد في أطناها شرقاً وغرباً ، والدنيا تزحف إلى العرب من تحت أقدامه وهم يجوبونها فاتحين مجاهدين في الله ورسوله حق الجهاد ، قد استحبوا الآخرة الباقية وآثروها على الدنيا الفانية ، والعالم القديم يلهج باسمه ، وجنوده منصوره في كل مكان يسبّحون بآلاء ربهم وما أفاءه على الإسلام . ولم تلبث أن امتدت إليه يد آثمة في الظلام ، قطعنه أبو لؤلؤة المجوسي طعنة مسمومة ، وهو قائم يصلي في المحراب . فبكاه المسلمون وأبنوه تأبيناً رائعا ، فمن ذلك قول الشماخ :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتُ يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَرْقُرِ
فَنْ يَجْرِي أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نَعَامَةً لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقِ
قَضِيَّتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِجُ^(١) فِي أَكْثَامِهَا لَمْ تَقْتَقِ
أَبْعَدَ قَتِيلٍ بِالْمَدِينَةِ أَظْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَهْتَرُ الْعِضَاءُ^(٢) بِأَشْوَقِ

(١) بوائج : جمع بائجة وهي الداهية .

(٢) العضاء : شجر ، وأشواق : جمع ساق .

تظل الحصانُ البكرُ يُنلقِي جَنِينَهَا نثاً^(١) خَبَرَ فوق المَطَى معلقٌ

وهو يستهل كلمته بالدعاء لعمر أن يحزيه الله عن الرعية خيراً وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبي لؤلؤة . ثم انتقل يتحدث عن إمارته على المسلمين واستصلاحهم وتفقد مصالحهم ، فقال إن من أراد إن يبلغ ذلك أو يرتقى إلى غايته حتى لو ركب جناحاً نعمة فإنه سيظل حسيراً مسبقاً . وتوجه إليه بالخطاب يقول له إنك قضيت أمورا وأحكمتها بجميل رأيك وتركت وراءها دواهي لا تزال في أكمامها وأغطينها لم تُفْتَق ولم تُكشَف . ثم أخذ يتحدث عن فظاعة الحادثة متعجباً أن يورق ويهتر شجرُ العضاء بعد أن نزلت بالمسلمين هذه الفاجعة التي لم تسمعها النساء حتى سقط حملهن استشعاراً لما تطوى من شر مستطير .

وهذه الصورة من الرثاء جديدة جددة واضحة ، فإن الشياخ لم يدع لعمر بأن تنزل السحب بقبوره كما كانوا يدعون في الجاهلية ، بل دعا الله له ، واستمطر رحمته عليه ، ثم تحدث عن سياسته للمسلمين وأمورهم مستعظماً للكارثة التي سقطت عليهم كأنها الصاعقة .

وخلف عمرَ عثمانُ ، وكانت في عهده أول فتنة في الإسلام ، إذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب ، وما زالوا به حتى قتلوه وهو يتلو القرآن الكريم ، فقال حسان :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ^(٢) عَنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يَقَطُّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقَرَّأَنَا

ونخلفه على فلم يستطع أن يلم ما تشعث إذ طعنته يد طائشة حالت بينه وبين ما يريد من جمع المسلمين على كلمة سواء ، فذهب إلى ربه راضياً مرضياً ، وفيه يقول أبو الأسود الدؤلي :

أَفَى شَهْرِ الصِّيَامِ لَجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طُرًّا أَجْعِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَخَيْسَهَا^(٣) وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

(١) نثا : شائع ، وتعليق الخبر فوق المَطَى : كناية عن أنه سارت به الركبان وتقاذفته البلدان .

(٢) أشمط : شائب .

(٣) خيسها : ذلها .

ومن لبس الثعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئينا^(١)
يقيم الدين لا يرتاب فيه ويقضى بالفرائض مستيينا

و واضح أنه يؤبنه بمحامد ومناقب إسلامية خالصة ، فهو خير الناس ديناً
وهب نفسه لربه يتلو قرآنه مثانيه ومئينه ، ويقوم شريعته على الحدود والفرائض التي
شرعها الإسلام ، فهو الخليفة التقي الصالح العدل الذي سار على الطريق النير
لا يحيد ولا يميل ، كأنه قسطاس الدين المستقيم ومعياره السلم .
ونمضي في الدولة الأموية فنجد مع وفاة كل خليفة مرآى مختلفة ، ولعل أهم
خليفة وثاه الشعراء عمر بن عبد العزيز ، إذ سار في الناس سيرة عادلة زاهدة ،
كلها تقوى وخشية من الله ، وإيثار للدار الباقية ، وفيه يقول جرير :

يَنْعَى النُّعْمَةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حُمِّلَتْ أُمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقِفَتْ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تُبْكِي عَلَيْكَ نَجْمُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

وجرير يذكر له تقواه وعبادته وحججه بيت الله ، ويفضله على كل المسلمين
في صلاحه وزهده ، ويشي على اضطلاعه بأمور رعيته ، وإقامته لشريعة ربه ،
ثم يصور عظم المصيبة فيه ، فيقول إن الشمس طالعة غير كاسفة تبكي عليه
نجوم الليل والقمر .

ويدور الزمن ، ويذهب الأمويون ويأتي العباسيون ، ويكثر الشعراء ،
ويكثر الرثاء ، وخاصة إذا كان الخليفة عادلاً ، لا يريد غير ربه بعمله ،
ولسكن الخاسر في ثالث خلفائهم المهدي يرثيه ويؤبنه :

وَبَاكِئٌ عَلَى الْمَهْدِيِّ عَبْرَى كَأَنَّ بِهَا وَمَا جُنْتُ جُنُونَا
وَقَدْ خَشَتْ مُحَاسِنَهَا وَأَبْدَتْ غَدَائِرَهَا وَأَظْهَرَتْ الْقُرُونَا^(٢)

(١) حذا النعل : قدرها وقطعها ، والمثاني والمئين : آيات القرآن الكريم .

(٢) الغدائر والقرون : غصن الشجر .

لئن بلي الخليفة بعد عشر^(١) لقد أبقى مساعي ما بلىنا
سلام الله غدوة كل يوم على المهدي حين ثوى رهيناً
تركنا الدين والدنيا جميعاً بحيث ثوى أمير المؤمنين

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد سالت على قبورهم دموع الشعراء فإن
الخلفاء الفاطميين في مصر قد أهاجهم أيضاً حين وفاتهم ، فنثروا الدموع الغزار
على أجدانهم ، فمن ذلك قول حنظلي الدولة أبي المناقب عبد الباقي في رثاء
المستنصر :

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى^(٢) ولا أمره أمر يُقاس به أمر
لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحى ففاجأ ليلاً ولم يطلع الفجر
فأجرى عليه حين مات دموعنا سماء ، فقال الناس لا بل هو القطر
وقد بكت النساء صخرًا وإنه ليكيه من فرط المصاب به الصخر

وهذا ندب وبكاء ، وكان يشيع عند الشيعة كما قدمنا في غير هذا الموضع
بكاء آل البيت ، فتناول الشعراء قبساً من هذا البكاء ، وكتبوا عليه مراثيهم في
الفاطميين .

وكلما وُجِدَتْ خلافة وجد معها هذا البكاء وما يُطَوَّى فيه من تأبين ، نجد
ذلك عند خلفاء بني أمية في الأندلس منذ عبد الرحمن الناصر ، كما نجده عند
خلفاء المغرب في دوله المختلفة من مؤحدين وغيرهم ، إذ كان ذلك سنة في
العالم الإسلامي ، لا حين يموت الخلفاء فحسب ، بل حين يموت الأعيان
والأشراف .

وكان للوزراء نصيبهم وحظهم من الرثاء ، وخاصة حين ينكبهم الخلفاء ،
ومن بنكاهم الشعراء كثيراً من وزراء الدولة العباسية ابن الزيات وزير المتوكل ،

(١) يشير إلى أنه ولي الخلافة مدة عشر سنوات .

(٢) الردى : الموت .

وفيه يقول الحسن بن وهب :

يكاد القلبُ من جَزَعٍ يطيرُ إذا ما قيل قد هلك الوزيرُ
أميرَ المؤمنين ! هدمتَ رُكنًا عليه رُحاكمُ كانت تدورُ
سيكى الملكُ من جَزَعٍ عليه وتبكي حين تضطرب الأمور

ومن الوزراء الأندلسيين الذين بكاهم الشعراء المنصور بن أبي عامر وزير هشام الملقب بالمعتد، وهو شخصية فذة، وكان له مجلس معروف كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والأدب، وهو الذى بنى مدينة الزاهرة بالقرب من قرطبة، وله حروب وغزوات كثيرة فى الأسبان الشماليين، وبما قيل فيه وكتب على قبره :

آثارُهُ تُنبِّيك عن أوصافِهِ حتى كأنك بالبيان تراهُ
تالله لا يأتى الزمانُ بمثله أبداً ولا يحى الثغورَ سواهُ

ومن الوزراء المشهورين لآخر عهد بنى أمية هناك حسان بن مالك بن أبي عبدة، وفيه يقول صديقه أبو عامر بن شهيد من مرثية طويلة :

أفى كل عامٍ مصرعٌ لعظيمٍ ؟ أصاب المنايا حادثى وقديمى
وكيف اهتدأتى فى الخطوب إذا دجّت وقد قدت عيناى ضوء نجوم
مضى السلفُ الوضّاح إلا بقيةً ككفرةٍ مسودّ القميص بهيم^(١)
أبا عبدة إنا غدرناك عند ما رجعنا وغادرناك غيرَ ذميم
أنخذل من كنا نرودُ بأرضه ونكرعُ منه فى إناء علوم^(٢)
ويجلى العصى عنا بأنوار رأيه إذا أظمت ظلماء ذات غوم

(١) يقول إنه لم تبق إلا بقية قليلة من السلف الأغر، وهى تشبه فى قلتها القرة فى الفرس الأسود، والبهيم : الخالص السواد .

(٢) نرود : من راد العشب أى طلبه، ونكرع : نشرب .

وعلى نحو ما أكثر شعراء الأندلس من رثاء وزراءهم أكثر المصريين من رثاء من استوزره الفاطميون وغيرهم، ومما قيل في طلائع بن رزيك:

أفـي أهل ذا النـادى عـلـيـم أسألـه فإني لما بي ذاهبُ اللبِّ ذاهلـه
سمعتُ حديثاً أحـسد الصُّمَّ عنـده ويذهل واعيـه ويخرس قائلـه
وإني أرى فوق الوجوه كآبةً تدلّ على أن الوجوه ثواكلـه

ورثاء وزرائنا في العصر الحديث يحتل مكاناً بارزاً في شعر حافظ وشوقي ،
ولالأخير في رثاء مصطفى فهمي أحد رؤساء الوزارة المصرية في خاتمة القرن الماضي
وفاتحة هذا القرن :

يا أيها الناعي أبا الوزراء هذا أوانُ جلائل الأنباء
حُثَّ البريد مشارقاً ومغارباً واركب جناحَ البرقِ في الأرجاء
واستبكِ هذا الناسَ دمعاً أو دمماً فالـيومُ يـومُ مدامعٍ ودماء
لم تنعَ للأحياء غير ذخيرةٍ ولتُ وغير بقية الكبراء

ووراء شوقي كثير من الشعراء الذين رثوا وأبَنُوا من توفوا من الوزراء ،
تسغفهم في ذلك الصحف اليومية التي تخرج مع كل صباح ومساء .

٣

تأبين الأشراف والأجواد والقواد

لم يترك شعراؤنا شريفاً على مر العصور دون أن يقفوا بقبره وينثروا مدامعهم
عليه . وكان مقياس الشرف في الجاهلية التميز في القبيلة بالكرم والشجاعة
والسيادة، ومن أقدم المراثي التي نذكرها في هذا الجانب مرثية أوس بن حجر في

فضالة بن كسيلة الأسدي ، وفيها يقول :

أيتها النفسُ أجلى جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا
 إن الذي جمع الساحة والنجم لمة والحزم والقوى جعما
 أودى^(١) وهل تنفع الإشاحة من أمرٍ لمن قد يحاول اليدعا
 الألمي الذي يظن لك ال ظنٌ كأن قدرأى وقد سمعا^(٢)
 المخلفُ المتلفُ المرزأ لم يمتنع بضعفٍ ولم يمت طبعما^(٣)

وهو يدور في تأيينه حول المعاني والصفات التي كان يقدرها العرب في الجاهلية ، والتي كانوا يطلبونها في أشرافهم وأصحاب النباهة والسيادة . وما تزال هذه الخلال وما يماثلها دائرة على ألسنة الشعراء في مراثيهم حتى عصرنا الحاضر . ونمضي بعد العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ، فتلقى الأرض بكنوزها إلى حجور العرب ، وتتكون طبقة كبيرة من الأشراف ، يكون من بينها الولاة وكبار القواد والأجواد ، وهي لا تقف عند حد ، فقد بالغ العرب في طلب المديح وأن تجرى ألسنة الشعراء فيهم بالثناء العطر ، فكانوا إذا رحلوا عن دنياهم شيعوهم بالعبرات . ومن طريف ما شاع على الألسنة في العصر الإسلامي مطلع قصيدة لابن قيس الرقييات في شريف وقائد من قواد العراق هو طلحة الطلحات ، إذ يقول :

نَصَّرَ اللهَ أَغْظَمًا دَفَنُوهَا بسجستان طَلْحَةَ الطَّلِحَاتِ

ولعل الشعراء لم يرحلوا إلى وال في هذا العصر كما رحلوا إلى عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر ، فقد كان كعبة القاصدين ، وملجأ المعوزين والمحتاجين ، وللفرزدق يرثيه :

ظَلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَقَدْ يَقُولُونَ تَارَاتٍ لَنَا الْعَبْرُ^(٤)

(١) أودى : هلك ، الإشاحة : الجدل في طلب الحاجة ، البدع : الأمور الجديدة الغريبة .

(٢) الألمي : الذكي الحديد القلب واللسان ، وقد وصفه بأنه يتظن الأمور فلا يخطئ .

(٣) المرزأ : الذي تعصيه الرزايا في ماله لكرمه ، والطبع : الثمن النقود .

(٤) العبر : الاعتبار .

يُقْبَلُونَ تَرَابًا فَوْقَ أَعْظَمِهِ كَمَا يُقْبَلُ فِي الْحُجُوجَةِ الْحَجَرُ ^(١)
 اللَّهُ أَرْضٌ أَجَنَّتْهُ ضَرْيَحَتُهَا وَكَيْفَ يُدْفَنُ فِي الْمَلْحُودَةِ الْقَمَرُ ^(٢)
 إِنْ الْمَنَابِرَ لَا تَعْتَاضُ عَنْ مَلِكٍ إِلَيْهِ يَشْخَصُ فَوْقَ الْمِنْبَرِ الْبَصَرُ

ولما تحولت الخلافة إلى بني العباس كان من بين من قضوا عليهم يزيد
 ابن عمر بن هبيرة والى العراق لمروان بن محمد وقائد جيوشه هناك ، وكان من
 الشجعان الأجاد ، وفيه يقول أبو عطاء السندی ناديا متفجعا :

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعَهَا الْجَمُودُ ^(٣)
 عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّتْ جِيوبُ بِأَيْدِي مَاتِمٍ وَخُدُودُ ^(٤)
 فَإِنْ تَمْسِ مَهْجُورَ الْفَنَاءِ فَرَبَّمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وَفُودُ ^(٥)

وكان للعصر العباسي أجداده وأشرافه وقواده الذين أجزلوا العطاء للشعراء ،
 وأجزل الشعراء لهم في المدائح والمراثي . ومن أهم من رثوه وبكوه مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ
 الشيباني والى المنصور على اليمن وله سير وأقاصيص في المديح تشبه سير حاتم
 كرم الجاهلية . ولعل أحدا لم يبلغ في رثائه ما بلغه الحسين بن مطير الأسدي ،
 فله فيه مرثية رائعة يقول في تضاعيفها هذه الأبيات البديعة :

أَلِيًّا عَلَى مَعْنٍ وَقَوْلًا لِقَبْرِهِ سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ ^(٦)
 فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُمْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّاحَةِ مَضْجَعًا ^(٧)

(١) المحجوبة : الكعبة .

(٢) الضريحة : اللحد أو وسطه .

(٣) واسط : البلدة التي قضى فيها على ابن هبيرة ، وهي بين البصرة والكوفة ، والمعنى الجمود :
 البخيلة بالدمع .

(٤) الجيوب : أعلى الثياب مما يلي الصدر .

(٥) الفناء : ردهة الدار ، والوفود : الجماعات ، والبيت كناية عن رياسته السابقة وكرمه .

(٦) الغوادي : السحاب : والمريع : مطر الربيع .

(٧) خطت : سمرت ، والمضجع : موضع الاضطجاع .

ويا قبر مَعْنٍ كيف وارىت جوده وقد كان منه البرُّ والبحر مُتَرَعَاً^(١)
 بلى قد وَسَّعَتْ الجودَ والجودُ مَيَّتُ ولو كان حَيًّا ضِيقَتْ حتى تَصَدَّعَاً^(٢)
 فَيَّ عِيشَ في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعَاً^(٣)

ومن وجوه العصر العباسي الذين أحدث موتهم جروحاً لا ترقأ في قلوب الشعراء منصور بن زياد، وفيه يقول التَّيْمِيُّ من مرثية طويلة :

عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَمِّمْ هَلَاكُهُ فالناس فيه كلهم مأجورُ
 والناس مَاتَهم عليه واحدُ في كل دارٍ رَنَّةٌ وزفيرُ

وكان ابنه محمد على مثاله في الجود والكرم ، وكان يلقب بفتى العسكر ، وللشعراء فيه مراثٍ بديعة ، ومن قول أشجع السلمي يرثيه :

أُنْعَى فَيَّ الجُودِ إلى الجود ما مثلُ من أُنْعَى بهموجود^(٤)
 أُنْعَى فَيَّ مَصَّ الثرى بعده بَقِيَّةُ الماء من العود^(٥)
 وانثلم المجدُ به نَلَمَةً جانبها ليس بمسدود^(٦)
 اليوم تُخَشَى عَثَرَاتُ الندى وصولَةُ البخل على الجود^(٧)

ومن شغلوا الشعراء أحياء وأمواتاً يزيد بن مزَّيد، سيف الرشيد المسلول على أعدائه ، وقد تغنى الشعراء بمدح طويلاً ، فلما نزل به القدر هبتوا ناعين باكين

(١) المترع : المماور .

(٢) تصدع : تنصدع أى تتشقق .

(٣) المرتع : المكان المعشب الذى ترعى فيه الماشية .

(٤) النعى : الإخبار بالموت .

(٥) يقول إن الأرض يبست وجفت بعد موته فامتصت ما فى العود من بقية الماء . وهو كناية

عن إجداب الأرض بعد موته .

(٦) انثلم : انصدع .

(٧) العثرات : الزلات ، والصولة : الغلبة .

وفيه يقول النيمي :

أحسُّ أنه أودَى يزيدُ تَبَيَّنَ أيها الناعى المُشِيدُ^(١)
أُتدري من نَعَيْتَ وكيف فاهتُ به شفتاك وارك الصميدُ^(٢)
أحامي الملك والإسلام أودَى فما للأرض ويحك لا تَمِيدُ^(٣)
تأمل هل ترى الإسلام مالتُ دعاةُ وهل شاب الوليدُ
أما والله لا تنفك عيني عليه بدمعها أبدا تجودُ

وكل بيت من المراثية يفيض بالدمع والأسى ، وهي من أجود المراثي في الشعر العربي قديماً وحديثاً . ومن الشعراء الذين برزوا في مراثي الولاة والقواد ممن فاضوا على الناس ببحور نوالهم وغمروا بها الأرامل واليتامى شاعر مشهور يدور اسمه على كل لسان ، وهو أبو تمام ، ومن قوله في إحدى مراثيه وهي في خالده بن يزيد بن مزيد :

أشييانُ لا ذاك الهلال بطالع علينا ولا ذاك الغمام بهائدٍ^(٤)
ولا جانب الدنيا بسهل ولا الضحى بطلقٍ ولا ماء الحياة بباردٍ^(٥)
فيا وخشة الدنيا وكانت أنيسة ووُحدة مَنْ فيها بمضرع واحدٍ

وكان من الحوادث الدامية في عصره أن قتل في بعض حروب العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، وهو محمد بن مُحَمَّيْد الطوسي الذي طالما دوخ الجيوش ، وكان آية في الجود والكرم ، فنوه به الشعراء وأطنبوا في الثناء ، فلما قتل في ساحة الحرب أقاموا له المآتم ، ومن أروع ما قيل فيه مراثية لأبي تمام ، نقرأ

(١) المُشِيد : الرفع لصوته .

(٢) الصميد : الثرى .

(٣) تميد : تتحرك وتهتز .

(٤) شييان : قبيلة الحيت .

(٥) طلق : مشرق .

فيها هذه الأبيات :

تُوَفِّيْتُ الآمالُ بعدَ مُحَمَّدٍ	وأصبح في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفَرِ ^(١)
فَتَى كَلِمًا فاضتْ عيونُ قبيلةٍ	دَمًا ضحكتْ عنه الأحاديثُ والذِّكْرُ ^(٢)
فَتَى دَهْرُهُ شطرانَ فيما ينوبه	ففي بأسه شَطْرُ وفي جوده شَطْرُ ^(٣)
فَتَى مات بين الطَّعْنِ والضربِ ميتةً	تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفه	من الضَّربِ واعتلت عليه القنا السُّمُورُ ^(٤)
تَرَدَّى ثياب الموت حُرًّا فما دَجَى	لها الليلُ إلا وهي من سُندُسٍ خُضِرُ ^(٥)

ويكاد الإنسان يظن أنه لم يمت شريف ولا صاحب مآثرة إلا نعاه الشعراء وخلدوا ذكره ، ودواوينهم تزخر بمراثيم لا في الشرق وبغداد فحسب ، بل في كل مكان حتى أقصى العالم الإسلامي في الغرب ، ونقصد الأندلس ، فإن شعراءها جكَّلُوا دواوينهم وأشعارهم بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود . ونستطيع أن ندخل في هذا الباب عندهم مراثيمهم في ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكاً حقيقيين ، إنما كانوا أمراء وأعياناً في بلدانهم ، واختارتهم هذه البلدان ليدبروا أمرها وقد اشتهر ابن باجة فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان بمراث بكى بها أبا بكر بن تيفكثويت صاحب سرقسطة ، وقد غنى بها في ألحان مبكية ، من ذلك قوله :

سلامٌ وإسلامٌ وروحٌ ورحمةٌ على الجسدِ النائي الذي لا أزورهُ
أحقاً أبا بكرٍ تقضى فما يرى تردُّ جماهيرَ الوفودِ سُورُهُ

(١) السفر : المسافرين .

(٢) يريد الشاعر بالقبائل التي تفيض عيونها دما القبائل التي هزمها في الحرب .

(٣) البأس : الشجاعة .

(٤) مضرب السيف : حده ، واعتلت : اعتذرت وتشاقلت ، والقنا : الرماح وتنت بالسمرة

كما تنت السيوف بالبياض .

(٥) تردى : لبس ، ودجى الليل : أظلم ، والسندس : الحرير .

لئن أنست تلك القبور بقبره لقد أوحشت أمصاره وقصوره
وقوله :

يا صدى بالثغر جاوره رِمَمٌ بُورِ كَنٍّ من رِمَمٍ^(١)
صَبَّحَتْكَ الخيلُ غازیةً فَأَثَارُكَ فلم تَرِمٍ^(٢)
قد طوى ذا الدهرُ بَرَّتَهُ عنك فالبسُ بَرَّةَ الكرمِ^(٣)

وإذا كان أبو تمام وغيره من الشعراء بكوا قواد العباسيين الذين استشهدوا في الحروب فإن الأندلسيين كانوا في حرب مستمرة مع الأسبان الشماليين ، وكم من سيد شريف وجواد كريم ضحى بنفسه في هذه الحرب وجاد بها راضيا يطلب ما عند الله من الثواب والأجر . وتغنى الأندلسيون بأبطالهم كما تغنى العباسيون بشجعانهم ، وتمثل في أذهاننا توا حروب الصليبيين في الشرق ، ومن ماتوا في تلك الحروب فداء أوطانهم ، ومن دوتخوهم مدافعين عن حوزة الإسلام . ولعل الشرق لم يعرف أميرين عظيمين في هذه المعارك كما عرف نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر ولما توفي أولهما نعاها الشعراء لحسن سيرته ولما قدم من بطولة سارت بها الركبان ، وفيه يقول العماد الأصفهاني :

يا ملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلةً فاخره
غاضت بحار الجود مذغيبت أنلك الفائضة الزاخره
ملكته دنياك وخلقتها وسرت حق تملك الآخره

وتحمل العبء من بعده صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر ومؤسس الدولة الأيوبية بها ، وأكبر من خضد شوكة الصليبيين ، بل لقد رى بأمواجهم إلى

(١) الصدى : جسد الشخص بعد موته .
(٢) لم ترم : لم تبرح مكانك من رمت المكان أى أقمت به .
(٣) البرزة : الثوب

البحر مستخلصا منهم بيت المقدس وغيره من بلدان الشام ، ولما نزل به قضاء ربه
رثاه العماد بقصيدة طويلة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتا وفيها يقول :

ملكٌ عن الإسلام كان محامياً أبداً إذا ما أسلمته مُحامتهُ
قد أظلمتْ مذ غاب عنها دُورهُ لما خلتْ من بدره داراتهُ^(١)
لو كان في عصر النبي لَأُنْزِلَتْ في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوانُ ربِّ العرش بل صلواته

وعلى هذه الشاكلة كان شعراؤنا لا يتركون شريفا ولا عظيما يموت وتذهب
ذكراه ، بل سجلوا دائما مناقب كل سيد نبيل ، وكل بطل جرى . وما دواوين
شعرائنا إلا سجلات حافلة بمن لمعوا في عصورهم ، ثم اختفوا وراء ظلمات الموت .
ونمضي بعد صلاح الدين في ديارنا المصرية ، ويدور بنا الزمن دورات ،
حتى نصل إلى العصر الحديث بين أنات الشعراء وصياحهم على من يتوفون من
سلاطين الممالك وعلية القوم ورؤسائهم وأجوادهم . وما نزال حتى نلتقي بحافظ
وشوقي فتجد لمرأى السراة والأعيان مكانا بارزا في ديوانيهما ، ولعل حافظا يتقدم
شوقي في هذا الجانب ، إذ دفعته رقة خاله للاتصال بطائفة من العلية الممتازين
في عصره ، وأغدقوا عليه من برهم وفضلهم فكان إذا نزل الموت بساحة واحد منهم
ذهب ينشج عليه وينوح بعاطفة حزينة صادقة ، من ذلك قوله في سليمان أباطة :

أودى سليمانُ فأودى بعده حُسْنُ الوفاء وبهجةُ العلياء
لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ما مُحِلتْ من منةٍ وعطاء
وذروا على نهر المدام نعشه يسرى به للروضَةِ ، الفيحاء
تالله لو علمتْ به أعوادهُ مذ لامسته لأورقتْ للرأي
خلقٌ كضوء البدر أو كالروض أو كالزهر أو كالنخل أو كالماء

ولشوقي هو الآخر مراث في سراة عصره ، وكانت له مقدرة بديعة في شوين
الرثاء بالحكم وسنعرض لذلك في حديثنا عن العزاء .

(١) الدارات : جمع دارة وهي الهالة الدائرة حول القمر .

تأيين العلماء والأدباء

طبيعى أن يكون للعلماء مكانهم فى التأيين والرئاء ، إذ كانوا يتصلون بحياة الشعراء اتصالاً مباشراً إما من الوجهة الثقافية العامة ، وإما من الوجهة الدينية ، وقلما مات صاحب مذهب فى الدين أو صاحب أثر بارز فى تأليف الشريعة إلا نعاه الشعراء وتحدثوا عن فضله وواسع علمه وقيمة ما ترك من ورائه . ومن بكاه الشعراء الأوزاعى فقيه الشام ، وإمام أهله لعصر بنى أمية ، وفيه يقول بعض الشاميين :

جاد الحَيَا^(١) بالشام كلَّ عَشِيَةٍ قبرا تضمّن لَحْدُهُ الأوزاعى
قَبْرُهُ تضمّن فيه طود شريعة سقيا له من عالم نفاع
عرضت له الدنيا فأعرض مقلعاً عنها بزهدٍ أيما إقلاع

وغير الأوزاعى من الفقهاء الأول كان يبيكه الشعراء ، ويؤبنونه معبرين عن إعجابهم به وبسلوكه العلمى والخلقى ، ولبعضهم فى الإمام مالك وكتابه «الموطأ» :

إمامٌ مَوْطَأُ الذى طُبِّقَتْ به أقاليم فى الدنيا فساحٌ وآفاقُ
له سَنَدٌ عالٍ صحيحٌ وهَيِّبَةٌ فللكل منه حين يرويه إطراقُ

وهو يشير إلى ما فى كتاب الموطأ من أحاديث صحيحة عالية السند ، موثوق بها ، إذ كان مالك ديننا ورعاً ، متحرّجاً فما يرويه من أحاديث ، فلم يَرَوْهُ إلا الصحيح . ويقول آخر فى الشافعى (وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس) :

(١) الحيا : الغيث .

ألم تر آثار ابن إدريس بعده دلائلها في المشكلات لوامع
إذا المفظمات المشكلات تشابهت سما منه نور في دجَاهن لاعم
تسرّبل بالتقوى وليدا وناشئا وخُصَّ بلبّ الكهل مذ هو يافع

ويطول بنا القول لو ذهبنا نحصى ما قيل في الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية على مر العصور ، فقد كانوا أساتذة المسلمين الروحيين ، وكانوا يتلقون عنهم من الهدى في دينهم ما يضفي لهم جوانب حياتهم ، فلا غرو أن وقفوا عليهم كثيرا من مراثيهم .

ولعل علماء اللغة هم أكثر العلماء اتصالا بالشعر والشعراء ، فقد كانوا يؤدّبونهم ، وعن طريقهم حذقوا فنهم وقد ذهبوا ينعونهم في شعرهم ، ونجد هذا النعي في كل مكان . ومن أكثر الشعراء نعيه منهم عبد الملك بن سراج نحى علم اللسان بجزيرة الأندلس ، فقد عقد ابن بسام في كتابه الذخيرة فصلا طويلا لمراثيه ، وبما قيل فيه :

كم مُصْعَبٍ في النحو راضٍ جاحه حتى غدا والصعبُ منه ذلولُ
أدنى إلى الأفهام نائٍ علمها حتى تساوى عالمٌ وجهول
طبٌّ بأدواء الكلام ملقنٌ سَهْمٌ على عَوْراته مدلولُ^(١)

ومن مراثي اللغويين والنحويين البديعة مريّة الشرف الحصني لابن مالك صاحب « الألفية » المشهورة ، وفيها يقول :

يا شتاتَ الأسماء والأفعال بعد موتِ ابن مالكِ المفضالِ
وانحرافَ الحروف من بعد ضَبْطِ منه في الانفصال والاتصالِ
مصدراً كان للعلوم بأذن الـ له من غير شبهةٍ ومُحَالِ
عَدَمَ النحو والتعطف والتو كيدُ مستبدلا من الأبدالِ

أدغموه في الترتيب من غير مثلٍ سالماً من تغييرٍ الانتقال.

وواضح أن الحصني تصنع لمصطلحات النحو ، فحشدها في مراثيته ، حتى يلائم بين الشعر وصناعة ابن مالك وقد وفق في هذا التصنيع ، فلم تسقط الأبيات ولا الأفكار منه ، واستمر طويلاً على هذا النحو الطريف .

ومن بين العلماء الذين أبتهن الشعراء العلماء بالفلسفة ، وقد وجدوا فيهم مادة لا تنفد من أحوال الدنيا ، وخاصة أن أكثرهم كان يتعاطى الطب ، ويداوى الناس من الأمراض ، ولم يستطع أن يداوى نفسه ولا أن يمنع عنها نزول الموت ، فذكروا فضلهم وعلمهم ، ثم وقفوا عند صنعتهم وأنها لم تغنهم من أمرهم شيئاً فمن ذلك قول يحيى المنجم في رثاء ثابت بن قرّة :

كَمِينَا الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّاتِ كُلَّهَا خَبَا نَوْرُهَا إِذْ قِيلَ قَدْ مَاتَ ثَابِتُ
وَأَصْبَحَ أَهْلُهَا حَيَارَى لِفَقْدِهِ وَزَالَ بِهِ رُكْنٌ مِنَ الْعِلْمِ ثَابِتُ
وَلَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ لَمْ يُغْنِ طِبُّهُ وَلَا نَاطِقٌ مِمَّا حَوَاهُ وَصَامَتُ^(١)

ويقول آخر في ابن سينا :

رَأَيْتُ ابْنَ سِينَا يَدَاوِي الرِّجَالَ وَبِالْحَبْسِ مَاتَ أَحْسَنُ الْمَاتِ
فَلَمْ يَشْفِ مَا نَالَهُ بِالشِّفَا وَلَمْ يَنْجُ مِنْ مَوْتِهِ بِالنِّجَاةِ

والشاعر يريد بالحبس انحباس بطنه من قرحة المعدة التي مات بها ، والشفاء والنجاة كتابان معروفان لابن سينا .

وإذا كان أسلافنا قدروا معاصريهم من العلماء في مختلف الفروع والفنون فإن شعراءنا أيضاً وفوا علماءنا حقهم من التكريم والتبجيل بعد وفاتهم ، فقلما توفي عالم نابه إلا أشادوا به ، وتحدثوا عن مناقبه ، وما أسدى لوطنه وأبنائه ، وما قدم لأمته من خدمات ، واستمع إلى شوقي يقول في أبي هنيئ أحد رجال القانون :

(١) المال الناطق : الثواب ، والصامت : العقار والضياع والذهب والفضة .

اجعلْ رثاءك للرجال جَزَاءً وابعثه للوطن الحزين عزاء
 إن الديار تريق ماء شُثُونِها كالأمهات وتندب الأبناء^(١)
 تُكَلُّ الرجال من البنين وإنما تُكَلُّ الممالك قَدُّها العلماء
 يَجْزَعَنَّ للعلم الكبير إذا هَوَى جَزَعَ الكتاب قد قَدَّنَ لواء^(٢)
 عِلْمُ الشريعة أدركته شريعة للموت ينظم حُكْمُها الأحياء
 طاعى قضاء الأرض عِلْمَ محصِّل واليوم عاج للسماء قضاء

فهو يشيعه لا يحزنه وحده ، بل أيضاً يحزن وطنه عليه ، ومصيبته فيه ،
 وخسارة أصدقائه ومواطنيه . ومن بين من رثاهم عثمان غالب ، وكان عالماً بالنبات
 وطبياً ، فرثى العلمين فيه ، وهو يستهل مراثيته بقوله :

ضجَّتْ لمصرَعِ غالبٍ في الأرض مملكة النبات
 في ماتمٍ تلقى الطيب مةٌ فيه بين النائمات
 والزهرُ في أكامه يبكي بدمع الغاديات^(٣)
 أما مصاب الطبِّ في هـ فسَلْ به مَلَأُ الأساء^(٤)

وكان شوقى يعرف كيف يستخرج في مراثيه المعاني من الموضوع الذى
 ينظم فيه ، وقد أطلال في بكاء الطبيعة وأزهارها على غالب ، ولما قطعنا هذه
 الأبيات الأربعة من أبيات كثيرة . وله في رثاء طبيب :

جَمَعَتْ جراحُ المُعْوزِينَ وأعضَلَتْ أدواؤهم . وتغيَّب الشافونا^(٥)

(١) ماء الشثون : الدموع .

(٢) العلم : المشهور ، وأصله الجبل .

(٣) الغاديات : السحب .

(٤) الملا : شيوخ الناحى ، والأساء : الأطباء .

(٥) أعضلت : استعصمت .

مات الجواد بطبّه وبأجره ولربما بذل الدواء مُعِيناً
وَتَجَسُّ رَاحَتُهُ الْعَلِيلَ وَتَارَةً تَكْسُو الْفَقِيرَ وَتَطْعِمُ الْمُسْكِينَا

وللمعلمين حظهم في مراثينا الحديثة ، وخاصة عند شعراء لبنان والمهجر ،
ولنسب عريضة مرثية بديعة يؤبّن فيها عبد الله البستاني مثنيا على أخلاقه وصفاته
وكندّحه في سبيل رقيّ بلاده ونهضتها العلمية ، وما جاء فيها :

إنه عالمٌ — تقول — قضى الأيّامَ ما بين طُرُسِدِ ودَوَاتِهِ
كَانَ يَقْرَأُ الْجِياعَ عِلْماً وَفَهْماً وَسَوَاهُ يَقْرِئُهُمْ مِنْ فُتَاتِهِ
هَذَّبَ النّاشِثِينَ فِي أُمَّةٍ مَا عَرَفَتْ حَقَّ قَدْرِهِ فِي حَيَاتِهِ
فَلْتَقَدَّسْ ذِكْرَاهُ فِي الْقَلْبِ فَالذِّكْرُ رَى بِقَلْبِ الْحَزِينِ مِنْ صَلَوَاتِهِ

ولعل مصر والبلاد العربية لم تبهك عالماً في عصرنا كما بكت الشيخ محمد
عبد مفتح الديار المصرية إذ كان مصلحاً كبيراً ، وكانت له معارك مع رجال
الدين المتزمتين ، كما كانت له معارك وطنية وسياسية ، وكان في كل ما يتجه
إليه يفكر في بلاده وفي دينه وفي الأزهر والنهوض به . وتصادف أن رعى حافظ
إبراهيم وأن كان سبياً في جَدْبِ الأَنْظَارِ إِلَيْهِ ، فلما توفي ردّ إليه صنيعه مراثي
ملتاعة ، وله في إحدى مراثيه :

سَلامٌ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ سَلامٌ عَلَى أَيَّامِهِ النَّصْرَاتِ
عَلَى الدِّينِ وَالْدُّنْيَا ، عَلَى الْعِلْمِ وَالْحِجَى عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى ، عَلَى الْحَسَنَاتِ

واستمر يتحدث عن إصلاحاته ، وذبه عن الإسلام ورده على مطاعن
أعدائه ، وما سطر في التفسير من آراء وأحكام ، حتى قال :

بَكَى الشَّرْقُ فَارْتَجَّتْ لَهُ الْأَرْضُ رَجَّةً وَضَاقَتْ عَيُونُ الْكَوْنِ بِالْعِبَرَاتِ
فَفِي الْهِنْدِ مُحْزُونٌ وَفِي الصِّينِ جَارِعٌ وَفِي مِصْرَ بِالْكَ دَائِمُ الْحَسَرَاتِ

وفي الشام مفعوج وفي القرم نادب وفي تونس ما شئت من زفات
بكي عالم الإسلام عالم عصره سراج الدياجي هادم الشبهات

وهي مرثية مليئة باللوعة الشديدة ، إذ كان يبكي فيه ناصره ، كما كان يبكي
فيه أهدافه الإصلاحية الكثيرة للهوض بوطنه .

وإذا كان العلماء قد استأثروا بكثير من مرثي شعرائنا في القديم والحديث
فإن الأدباء استأثروا من ذلك بالخط الأوفر ، سواء أكانوا كتاباً أم كانوا شعراء .
والشريف الرضي مرثيتان مشهورتان في أكبر كاتبين في عصره ، وهما أبو إسحاق
الصائبي شيخ الكتاب في بغداد والصاحب بن عباد وزير البويهيين وخير كتابهم ،
ومن قول الشريف في أولهما :

أعلمت من حملوا على الأعواد أرايت كيف خبا ضياه النادى ؟
جبيل هوى لو خر في البحر اغتدى من وقعه متابع الإزباد
ما كنت أعلم قبل دفنك في الترى أن الترى يعلو على الأطواد

ويقول في الصاحب من مرثية طويلة :

أكذا المنون يقطر^(١) الأبطالا أكذا الزمان يضعضع الأجبالا
جبيل تسنت البلاد هضابه حتى إذا ملأ الأقاليم زالا
يا طالبا من ذا الزمان شبيهه هيهات كلقت الزمان محالا

وكثير هم الكتاب الذين دبح الشعراء فيهم مرثي بديعة ، ففي الشرق والغرب
وفي كل مكان نجد الشعراء يذكرونهم . ومن طريف ما جاء عن الأندلسيين من
ذلك رثاء ابن برّد الأصغر لأبي عامر بن شهيد صاحب رسالة التوايح والزوايح ،
وهي رحلة فيها وراء الطبيعة لشاعر جاس خلال وادي الجحش ، والتقى فيه بشياطين
الشعراء ، وحاورهم وحدّثهم كما حدثوه . ومن قول ابن برّد فيه :

لَايَةً خِصْلَةً تَبْكِيكَ عَيْنِي وَمَالِي بِالْحَسَابِ لَهَا يَدَانِ
 أَلِلْهُمَّ النُّوْطَةَ بِالثَّرِيَّا أَمِ الشِّمَّ الْمَهْدَبَةَ الْحَسَانَ
 أَمِ الْقَلَمَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَجْنِي مِنْ الْقِرْطَاسِ نَوَّارَ الْبَيَانِ

ولكتاب العرب المحدثين نصيبهم من هذه المراثي ، وخاصة من اشتغلوا منهم
 بالصحافة ، وساهموا في حياتنا الأدبية ، ويكنى أن نرجع إلى ديوانى حافظ وشوقى ،
 فسنجد عندهما مراثى لكثيرين من الكتاب المعاصرين أمثال جورجى زيدان
 والشبيخ على يوسف صاحب المؤيد ويعقوب صروف أحد صاحبي مجلة المقتطف
 وصحيفة المقطم ، ومحمد المويلحى الذى كان يجرى مع أبيه إبراهيم صحيفة مصباح
 الشرق ، والذى ألف حديث عيسى بن هشام وصور فيه حياتنا المصرية فى
 أواخر القرن الماضى ناقدًا ما اقتبسناه من أوروبا من عادات وأخلاق ، ومجربًا ذلك
 فى شكل قصصى يعتمد على الحوار ورسم الشخصيات ، وإلى هذا الكتاب يشير
 حافظ فى تأبينه له إذ يقول :

لو شهدتم (محمدًا) وهو يُملى آىَ (عيسى) ومعجزات الكتاب^(١)
 وقفت حوله صفوفُ اللعانِ وصفوفُ الألفاظ من كل بابٍ
 لعلمتم بأن عهدَ ابنِ بَحرٍ عاود الشرقَ بعد طول احتجابٍ^(٢)

ويقول شوقى :

فى يد النَّشءِ من بيان المويلحى مثلُ ينفع الشبابَ اتباعُهُ
 صورٌ من حقيقةٍ وخيالٍ هى إحسانُ فكرِهِ وابتداعُهُ

وإذا تركنا الكتاب إلى الشعراء وجدناهم يحزنون على زملائهم الذين يسبقونهم
 إلى الموت حزنا يفضى بهم إلى التنفيس عن لوعتهم بالأبيات والمقطوعات أحيانًا

(١) ورى حافظ فى كلمتى محمد وعيسى ، وهو يقصد محمد المويلحى وكتابه عيسى بن هشام .

(٢) ابن بحر هو عمرو بن بحر الجاحظ أشهر كتاب العصر العباسى .

وبالقصاصد والمرأى المطولة أحياناً أخرى . وهذا التعاطف والتراحم بينهم من قديم ، وحتى بين من كانوا يتهاجون فإن الفرزدق كان يتعارف مع جرير ، ولهما نقائض مشهورة ، ولما ألمّ بالفرزدق طائف المتنون بكاه جرير في أشعار مختلفة ، منها قوله :

فَجِئْنَا بِحَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنَ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عَرَضِيهَا وَالْمُرَاجِمِ^(١)
بَكَيْنِكَ حَدَثَانِ الْفِرَاقِ وَإِنَّمَا بَكَيْنِكَ شَجَوُا لِلْأُمُورِ الْعِظَامِ

ومن يرجع إلى كتب الأدب والتراجم في العصر العباسي يجد الشعراء مكبتين على تأيين زملائهم الراحلين ، وهذا طبيعي بحكم الزمالة وما نشأ بينهم من صفة وصداقة ، وهي صداقة روحية ، وكثيراً ما تكون صداقة تلمذة ، فتجتمع الأبوة الفنية مع الصداقة الروحية ، أو تكون الأخوة الأدبية التي تربط الشعارين برابط أقوى من رباط الدم . ومن بكاهم إخوانهم وأعلوا في بكائهم أبو تمام ، وفيه يقول الحسن بن وهب :

فَجِئَ الْقَرِيبُ بِخَاتَمِ الشُّعْرَاءِ وَغَدِيرِ رَوْضَتِهِ حَبِيبِ الطَّائِي
مَا نَا مَعَا فَتَجَاوَرَا فِي حُفْرَةٍ وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلُ فِي الْأَحْيَاءِ

ويقول علي بن الجهم :

غَاضَتْ بَدَائِعَ فِطْنَةِ الْأَوْهَامِ وَعَدَتْ عَلَيْهَا نَكْبَةَ الْأَيَّامِ
وَعَدَا الْقَرِيبُ ضَنْئِيلَ شَخْصٍ بَاكِئَا يَشْكُو رَزِيئَتَهُ إِلَى الْأَقْلَامِ
وَتَأَوَّهَتْ غُرَرُ الْقَوَافِي بَعْدَهُ وَرَمَى الزَّمَانُ صَحِيحَهَا بِسَقَامِ
أَوْدَى مَثْقَفَهَا وَرَائِضُ صَعْبِهَا وَغَدِيرُ رَوْضَتِهَا أَبُو تَمَامِ
ولما قتل المتنبي أقام الشعراء عليه المآتم في كل مكان ، ومن رثاه فأحسن في

(١) حال الديات : الذي يحمل عن الناس ما يطلب منهم من الديات والمغارم ، والمراجم . المناضل والمدافع .

رثائه على إيجازه أبو القاسم مظفر بن علي الطَّبَّسِي ، إذ يقول :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ الْمُتَنَبِّىِّ أَيْ ثَانٍ يُرَى لِيَكْرِى الزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْشٍ وَفِي كِبَرِيَاءٍ ذِي سُلْطَانِ
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مَعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

وكان أبو العلاء كثير التلاميذ، فلما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مرأى يبيّنه فيها ، ويبيّن الشعر والعلم والثقافة الواسعة ، وفيه يقول على بن الهمام من مرثية طويلة :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرَقِّ الدَّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرَقْتَ الْيَوْمَ مِنْ جَفْنِي دِمَا
سَيَّرْتَ ذِكْرًا فِي الْبِلَادِ كَأَنَّهُ مِسْكٌ مَسَامَعَهَا يَضْمَخُ أَوْفَمَا
وَتَرَى الْحَجِيجَ إِذَا مَا أَرَادُوا لَيْلَةً ذَكَرَكَ أَخْرَجَ فِدِيَةً مِنْ أُخْرَمَا

وهو يشير في البيت الأول إلى تحريمه على نفسه الحيوان ، وأنه لم يرق دمه ليأكله ، ويقول في البيت الأخير إن ذكره طيب ، والطيب لا يحل للمحرم الحاج ، فإذا ذكره وجب عليه أن يؤدي الفدية .

ولذا كان شعراؤنا في العصور الماضية قد أدى بعضهم لبعض حقوقهم من التأيين والبكاء فإنهم في عصرنا الحديث يستبقون إلى هذا الواجب الأدبي استباقاً ، فكل منهم يظهر وفاءه بزميله وأن كارثته فيه فوق أن تُحَدِّدَ أو توصف ، بل إنها كارثة الشعر والفن ، وأيضاً فإنها كارثة الوطن الذي أُصِيبَ به وخرّج يشيعه كسير القلب والفؤاد . ولعل أهم شاعر لبست له مصر ثياب السواد في مفتتح قرننا هو البارودي أبو شعرنا الحديث ، الذي نفخ في روحه وبعثه من موته ورقاده ، وفيه يقول سحافظ إبراهيم نادبا مشيدا بأعجاده الفنية :

لَيْتَكَ يَا شَاعِرًا ضَنَّ الزَّمَانُ بِهِ عَلَى النَّهْيِ وَالْقَوَافِي وَالْأَنَاشِيدِ^(١)

تَجْرَى السَّلاَسَةُ فِي أَثْنَاءِ مَنْطَقِهِ تَحْتَ الْفَصَاحَةِ جَرَى الْمَاءُ فِي الْعُودِ
لَوْ حَنَطُوكَ بِشَعْرِ أَنْتَ قَائِلُهُ غَنِيَتْ عَنْ نَفَحَاتِ الْمِسْكِ وَالْعُودِ

ثم يتحدث عن قصائده في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنها خير زاد له يوم الحساب ، ثم يعرض لمناصبه في الثورة العرابية وقبلها ، كما يعرض لخروبه في جيوش الترك ، ويقول :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْدَعُوهُ جَوْفَ لَوْلَاةٍ مِنْ كَنْزِ حَكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أَخْذُودٍ^(١)
وَكَفَّنُوهُ بِدَرْجٍ مِنْ صَحَائِفِهِ أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَيْصِ الصَّبْحِ مَقْدُودٍ^(٢)

وما يزال حافظ يشيد بشعره وفرائده الحسان التي بلغت من الجمال الفني أروع مظاهره . وكما بكى حافظ البارودي وأبنته بكى إسماعيل صبرى هو الآخر وأبنته تأبيناً طريفاً ، وفيه يقول :

أَوَّلَ يَوْمٍ لَعَدَ الرَّيِّحُ تَجَفُّ الرِّيَاضِ وَيَذْوِي الزَّهْرُ^(٣)
وَيَذْبُلُ زَهْرُ الْقَرِيضِ الثَّرِيٍّ وَيُقْفِرُ رَوْضُ الْقَوَافِي الْغُرَرِ
لِيَهْدَأَ عَمَانُ فَنَوَاصِيهِ أُصِيبَ وَأَمْسَى رَهْنِ الْحَقَرِ^(٤)
يَقُولُ فَيُرْخِصُ دُرَّ النُّحُورِ وَيُغْلِي جُحَانَ بَنَاتِ الْفِكَرِ^(٥)

واستطرد يتحدث عن خصائصه في شعره ، وأنه كان يعنى بتأليف المقطوعات القصيرة لكنها على قيصرها لها جمالها وحسنها ، ولها إعجازها وإبداعها ، بما أدت من نقشات الهوى وتعاويد الحب والحوى . وأبنته شوقي بمرثية طويلة ،

(١) الأخدود : الحفرة في الأرض ، والمراد بها القبر .

(٢) الدرج : ما يكتب فيه ، والمقدود : المشقوق .

(٣) يشير إل أن إسماعيل صبرى توفى مع أول الربيع .

(٤) عمان : في الجنوب الشرقى للجزيرة العربية على خليج العرب ، وتشتهر باللؤلؤ المستخرج

من مياهها .

(٥) الجحان : اللؤلؤ .

ذكر فيها تلمذته له ورعايته الأدبية ، إذ يقول في وصف قصيدته :

هذا هو الريحان إلا أنه نَفَحَاتُ تلك الروضة المثناف^(١)
والدرُّ إلا أن مَهْدَ يَتِيمِهِ بالأمس لُجَّةٌ بِمَحْرِكِ القَذَافِ
أَيَّامَ أَمْرَحُ في غبارك ناشئاً نَهَجَ المِهَارِ على غبار «خِصَاف»^(٢)
أَتَعَلَّمُ الغايات كيف تُرَامُ في مضمار فَضْلٍ أو مجال قواف

وواضح أن شوقي، يذكر له فضله عليه في الشعر وفي التخلق بالأخلاق الكريمة . ولا سبقه حافظ إلى الدار الباقية بكاه بمرثية رائعة افتتحها بقوله :

قد كنتُ أُوثرُ أن تقولَ رثائي يا منصفَ الموتى من الأحياء

وما زال يتحدث عن حياته ووفائه لأصدقائه ، وشعره وما خسرت الفصحى بموته ، وكيف نعته البلاد العربية وبكته ، حتى قال :

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجديها وإمامٌ من تَجَلَّتْ من البلغاء^(٣)
جَدَّدْتَ أسلوبَ (الوليدِ) ولفظَه وأتيتَ للدنيا بسحر (الطائي)^(٤)

ولم يلبث نجم شوقي أن أفل بعد حافظ بقليل فنعته البلاد الناطقة بالضاد كلها ، ولم تبق بلدة إلا نشجت عليه وبكت ، ولم يبق شاعر من شعرائها إلا استوحى موته مرثية باكية يشيع بها إلى مثواه الأخير . ومن رائع ما رُئي به قصيدة بشارة الخوري ، وفيها يقول :

قِفْ في رُبِّي الخلدِ واهتِفْ باسمِ شاعره فسيَدْرَةُ المُنْتَهَى أدنى منابره

(١) الروضة المثناف : الروضة التي قلما يمر بها أحد .

(٢) المهار : جمع مهرة ، وخصاف : فرس مشهور عند العرب ، والتشبيه واضح .

(٣) نجلت : ولدت .

(٤) الوليد : البحترى ، والطائي : أبو تمام .

وَأَمْسَحْ جَبِينَكَ بِالرُّكْنِ الَّذِي انْبَلَجَتْ أَشْعَةُ الْوَحْيِ شِعْراً مِنْ مَنَازِرِهِ
إِلَهَةُ الشَّعْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ وَرَبَّةُ النَّثْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ
وَالْحَوْرُ قَصَّتْ شَذُوراً مِنْ غَدَائِرِهَا وَأَرْسَلَتْهَا بِدِيلَا مِنْ سَتَائِرِهَا

ومن الأدباء الذين نعام الشعراء في عصرنا جُسران شاعر المهجر وكاتبه الفذ ،
وزملائه من الشعراء في ديار أمريكا مراث فيه تعبر عما عصفت بقلوبهم من حزنهم
على زميلهم حزناً عميقاً ، ومن قول نسيب عريضة فيه :

أَيُّهَا الشَّاعِرُ الْأَلْمِيُّ طُوبَى لَكَ فِي الْأَوْجِ حَيْثُ رَوَّحَكَ تَرْتَعُ
أَمْسَكَتَ الْبَيْنَ شَذُورًا نَايِكَ لَسَكُنُ لَمْ يَزَلْ لَحْنُهُ يَرِنُ وَيُسْمَعُ
وَأَنَا شَيْدُكَ الْحَسَانُ مَتَّبِقِي خَيْرِ لِرِثِّ لَأُمَّةٍ تَتَفَجَّعُ
أَرْزَ لَهْنَانِ اطَّأطِءِ الْهَامَ وَانْخَشَعْ سَكَتَ الشَّاعِرِ الَّذِي كُنْتَ تَسْمَعُ
سَيَّاسِيكَ فِي جَوَارِكِ قَبْرِ هُوَ فِي قَلْبِهِ أَعَزُّ وَأَرْفَعُ

وعلى هذه الشاكلة كلما سقطت القيثاراة من يد شاعر في عصرنا تولاه إخوانه
وزملائه بالبكاء عليه ، ونثروا على قبره أزهار شعرهم ، وبثوه نفثاتهم الشجية .

٥

حفلات التأبين الحديثة

مر بنا في تضاعيف حديثنا ما يدل على أن أسلافنا عرفوا تأبين الجماعات من
الشعراء الفقيد راحل ، إذ كانت تقف بقبر بعض الراحلين طوائف من الشعراء ،
فترثيه ، وتؤبونه ، وتعرض لسجاياء ومناقبه ، وتحدث عن علمه الغزير إن كان عالماً ،
وأدبه الخصب إن كان أديباً ، كاتباً أو شاعراً . ومعنى ذلك أنهم عرفوا التأبين
الجماعي .

وهكذا شأن عصرنا ، فقد يقف الشعراء على قبور الراحلين ، وقد يعودون بعد وفاتهم ، فيحتفلون بذكراهم ، إما في تمام الأربعين يوما من وداعهم ونزولهم في مثواهم الأخير ، أو بعد ذلك ، حسب الظروف والأحوال . وما تزال الصحف تطلع علينا من حين إلى حين بهذه الحفلات التي يتناول فيها الخطباء والشعراء سير الراحلين .

وتتنوع هذه الحفلات ، فهي تارة تعرض لمصلح اجتماعي كبير أو صحفي خطير أو زعيم وطني عظيم ، أو شاعر عَنَت له الوجوه ، أو كاتب انحنت له الرموس ، وفي دواوين شعرائنا قصائد كثيرة نظموها في هذه الحفلات .

وتستطيع أن ترى صورة واضحة منها في كتاب « ذكرى الشعارين : حافظ وشوقي » لأحمد عبيد ، فقد جمع فيه أكثر وأجمل ما قيل في تأبينهما نثراً وشعراً ، وهو كتاب نفيس ، بما صور فيه كتابنا وشعراؤنا عمل الشعارين جميعاً .

ومن حين إلى آخر يظهر مثل هذا الكتاب . ومن الظواهر الطريفة أن المرأة اشتركت في حياتنا الحديثة وأنها تقدمت تحمل اللواء في الشعر وفي النثر وفي الحياة العامة .

وكان لمي زيادة دور كبير في حياتنا الأدبية ، وكان لها منتدى يجتمع إليه الأدباء والشعراء ، كما كان لها رسائل أدبية لطيفة . فلما توفيت بكأها البرق ونعها الصحف ، وأقيم لها حفل تأبين تمجيداً لها ولأيادها وتحية لروحها وما وهبت من نفسها . وطُبعت الكلمات والقصائد التي أُلقيت في هذا الحفل ، وما جاء فيها على لسان العقاد :

حَيَّ (مَيَّا) إِنْ مِنْ شَيْعِ مَيَّا مِنْصَفَا حَيَّ اللِّسَانِ الْعَرَبِيَّا
وَجَزَى حَوَّاءَ حَقًّا سَرْمَدِيَا وَجَزَى (مَيَّا) جَزَاءَ أَرْيَحِيَّا
لِلَّذِي أَسَدَتْ إِلَى أُمَّ الْكِتَابِ

وجزى في عصرنا الكتاب والشعراء لموت السيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر ، التي أسست من مالها دوراً ومدارس لمن كبا بهم الحظ العاثر ، كما أخذت بأيدي كثير من الفتيات والفتيان ، ممن رأت لديهم مواهب عالية ،

فأرسلتهم إلى حواضر الغرب ليُكملوا علمهم وفهم . وهذه الأيادي الكثيرة لم تذهب عبثاً ، فقد تجمعت منها باقة عطرة من الذكرى ، نُثرت على روحها في حفل تأبين كبير ، تحدث فيه جمهور من الكتاب والشعراء ، أحصوا أعمالها الباهرة ، ومجّلوا جهودها الرائعة ، وتحليل مطران مرثية بديعة صور فيها ما قدمت لوطنها من أمجاد ومفاخر ، ومن قوله :

هُدَى ! بلغتِ بما أبلتِ منزلةً عصماء خالدة الذكرى على الحَقْبِ
فقد تفرَّدتِ بالأفعال باهرةً كما تفردتِ بالأقوال والخطبِ
مؤسّساتك لو عُدَّت ولو وصفتُ لما انتهى عُجْبٌ إلا إلى عَجَبِ
آياتُ عصرٍ جديدٍ للرُّقى يَرَى مستقبلَ الشعب فيها كلُّ مرتقبِ
بها تُعدُّ البنّات الصالحات له والأمّات لجيل عامل دَرِبِ

وليست المرأة وحدها التي تشهري نظرنّا في هذه الحفلات الحديثة للتأبين ، فإننا نجد فيها تكريماً للتابعين من الفنانين ، لا الكتاب والشعراء فقط ، بل أيضاً النحاتّين والرّسامين ، وأصحاب الموسيقى والغناء ، ولشوقي مرثية طويلة أُلقيت في حفلة تذكارية تمجيداً للشيخ سلامة حجازي الذي تسم قمة المجد في فني الغناء والتمثيل أوائل هذا القرن ، وفيها يقول :

يا ثرَى النيلِ في نواحيك طَيرٌ كان دُنْيَاً وكان فَرَحاً جيلِ
لم يزل ينزلُ الخُطائلَ حتّى حلّ في ربوةٍ على سلسيلِ
عبقرياً كأنه زَنَبُ الخُلدِ يدُ على قَرَعَةِ السَّريِّ الأَسيلِ^(١)
أين من مستمع الزمان أغاذه على عليهن روعةُ التمثيلِ
أين صوتٌ كأنه رنةُ البُذ بُل في الناعم الوَرِيف الظَّليلِ
فيه من نعمة المزامير معنَى وعليه قداسةُ الترتيلِ

(١) السرى : الجدول والأسيل : الطويل المسترسل .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوانى حافظ وشوقى راعنا أنه لم يمت صاحب عمل مجيد ناصع في حياتنا الحديثة أو صاحب رأى وعقيدة ، أو صاحب مثل وغاية نبيلة ، إلا اجتمع لإخوانه على ذكره ، وأقاموا له تأيينا حافلا ، ووقف حافظ معهم أو وقف شوقى ، أو وقفنا جميعاً ينثران مدامعهما وأشعارهما على الراحل الكريم . ويحذو حذوهما بقية الشعراء في أقطارنا العربية .

وقد أخذت تظهر في التأيين هنا وهناك تلوينات حديثة لم يكن يعرفها الشعراء في العصور الماضية ، إذ كان الشاعر يحصر نفسه في المناقب الفردية الخاصة بالراحل ، أما في عصرنا الحديث فإن الشعراء أخذوا يعرضون في رثائهم للمناقب الاجتماعية ، وما أسداه الفقيد لمجتمعه من وجوه خير وإصلاح في مختلف نواحيه ، فإذا مات مثلاً قاسم أمين الداعى لتحرير المرأة عرض الشعراء في رثائه لدعوته على نحو ما نجد عند حافظ وشوقى في تأيينه ، ولو أنهما لم يكونا حينئذ من رآيه .

ولعل أهم التلوينات التى أدخلت على المراثية الحديثة ما انصب من النزعات السياسية والوطنية فقد نزل الاستعمار بالأمم الشرقية ، ولم يلبث أن ظهر في كل بلد من بلادنا مجاهدون وزعماء استحقوا تمجيد أوطانهم . وكان كلما نعى البرق واحدا منهم هب شعراؤنا يوقعون على قيثاراتهم أشجان المواطنين وأحزانهم . وفي ديوانى حافظ وشوقى مراث لسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ممن تقدموا الصفوف ، وضغطوا على المستعمر بكل ما يملكون من قوى في أوطانهم . وهذا حافظ يقول في مصطفى كامل :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته	وعلمتُ منه مراتب الأقدار
ورأيتُ كيف تنى الشعوبُ رجالها	حقاً ، الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشعٌ	يمشون تحت لوائك السيار
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى	للحزب أسطاراً على أسطار
آنا يوالون الضجيج كأنهم	ركبُ الحجيج بكعبة الزوار
وتخالهم آنا لفرط خشوعهم	عند المصلّى يُنصتون لقارى

وواضح أنه يصور فجيرة الأمة المصرية فيه ، والمرثية كلها تدور حول جهاده وما غرس في وطنه من حراب للمستعمر بما كان يكتب في صحيفة « اللواء » وبما كان يخطب في أمته ضد كرومر والإنكليز ، وبمواقفه الوطنية التي ألهمت مشاعر المصريين ، وسعرت نيران الصراع فيهم ضد المستعمرين الغاشمين . ومرثية شوقي في سعد زغلول التي يستهلها بقوله :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

أروع ما ديجته يراعتة في الرثاء الوطني . وهو يضيف إلى مرثيته الوطنية مراى لزعماء العرب وقاديتهم في بلدانهم المختلفة ، فهذا فوزى الغزى أحد المجاهدين ضد الفرنسيين في سوريا الشقيقة ، تقيم له بلاده حفل تأبين ، فيأبى شوقي إلا أن يرفرف بروحه مع المؤمنين ، فيرسل بمرثية تتلى في الحفل ، وفيها يقول :

يا (فوزى) تلك دمشق خلف سوادها ترمى مكانك بالعيون وترمق^(١)
(بردى) وراء ضفافه مستعبر^(٢) والخور^(٣) محلل الضفائر مطرق^(٤)
والطير في جنبات (دمر) نوح^(٥) يجدد الهموم خليه^(٦) ويأرق^(٧)

وعلى هذا النحو أصبح عالمنا العربى الحديث أشبه بالجسد الواحد ، إذا اشتكى فيه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والآلام

(١) سواد دمشق : القرى التابعة لها .

(٢) بردى : نهر يشق دمشق ، والخور : شجر ، وضفائره : غصونه .

(٣) دمر : من ضواحي دمشق ، والخل : الخال من الهموم .

الفصل الثالث

العزاء

١

معنى العزاء

أصل العزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر ، فتلك سنة الكون ، نولد ، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء ، ثم نموت ، وكأن الناس راحلون وهم لا يفكرون عَقْد رَحْلهم إلا في أجدائهم ، فهي قرارهم ، وهي غايتهم التي ينتهون إليها ، ولا مفر لهم منها ولا خلاص .

وإذن فليقبلوا الحياة كما هي ، ليقبلوها على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار ، فكل يلعب دوره ويمضي ، ولا شيء يدوم . يقبل النهار المشرق ثم يدبر ويخرج الليل المظلم ، وينعقد السحاب وتبكي السماء ثم يصحو الجو ويصفو . والإنسان ضعيف أمام هذا التغير والتقلب ، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئاً ، فسرعان ما يعصف به الموت ، فإذا هو محمول على آلة حدة باء .

إنه عاجز ، وليس له إلا أن يلعن إذعانا خالصاً ، إذعانا لا تشوبه مقاومة ، وهل من أمل في مقاومة ، وهو يرى نفسه كل يوم مشدوداً في خيوط قوية بيد قاهرة تدبر شئونه ، وقد تنتهي به إلى الإخفاق في أمله بل في روحه ووجوده ، فإذا هو لا يستطيع أن يستأنف نشاطاً ولا فوزاً وانتصاراً .

وهؤلاء الذين نحبهم ونؤثرهم على أنفسنا من آباء وأبناء وإخوة ماذا نستطيع أن نقدم لهم حين تَحِين ساعتهُم ؟ إننا مهما فكرنا وقدرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت البغيضة . ونحن نلذف الدموع لفراقهم ملرارا ، ولكن ماذا تفيد الدموع ؟ وماذا يفيد الأسى والحزن ؟ إنه لا بد من أن نَحْتَمِل المكروه ونتعزى ونصبر على ما نزل بنا .

وكان شاعرُ الجاهلية القديم يفكر في هذا كله ، فكان يحزن ويبكى ويلتاع ويعبر عن ذلك تعبيرا قويا في شعره ، ثم يعود إلى نفسه ، فيرى أن كل ما يصنعه لا يغنيه شيئا ، لأن المحنة في حقيقتها محنة كبيرة ، محنة الناس جميعا ، يُمْتَحِنُونَ بها صباح مساء ، ولا يستطيعون لها ردا ولا دفعا . فليترك البكاء والدموع وليستسلم للموت مخلولا ، بل يائسا مقهورا ، فالناس كلهم يموتون والناس كلهم يصابون بحَمِيم أو قريب ، ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما ييكون مثلَ أخى ولكن أعزَّى النفسَ عنه بالتأمى

فهى تجد فى بكاء غيرها ما يعزُّيها عن أخيها ويسليها عن مصيبتها فيه ، وكان غيرُها من الشعراء يمد بصره إلى أفق أوسع ، فيرى أن الحزن والبكاء لا يردَّان أحدا ، وأن جريتا به أن يكون جلدا صابرا على المصيبة تلم به ، ولا يستشعر خذلانا ولا ضعفا .

ونجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر ، فالموت كأس يذوقها الجميع ، لم يسلم منها أحد ، لا ملك ولا سوقة ، وكم من دولة دالت وجماعة بادت ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود ومثل كسرى وسابور ملكى الفرس وملوك الروم المختلفين وملوك الحيرة . ولعدى بن زيد العبادى شعر كثير فى ذلك ، يقول فى بعض قصيده :

أين أهلُ الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدها وثمود

ويقول :

أين كسرى، كسرى الملوك أنوشيز . وان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك ال روم لم يبق منهم مذكور

وكان الجاهليون يثيرون هذه الأفكار وما يشبهها للتعزى عن الموت وبيان
أن داعيه لا يقطع ، وأن كل إنسان إليه يرجع .

ولما عمت أضواء الإسلام في النفوس أخذت تظهر معه نزعة جديدة في العزاء
تقوم على التسليم لله والرضا بقضائه والصبر على امتحانه احتساباً وطلباً للأجر
والثوبة من عنده واقتداء بقوله سبحانه «وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم
المهتدون .

٢

العزاء في الأهل

كانت العادة في الجاهلية أن يعزى الشاعر نفسه إزاء من يفقد من أهله
وأشراف قبيلته ، فعزاؤه يوجه قبل كل شيء إلى نفسه ، ثم إلى من حوله . ولما جاء
الإسلام ونشأت طبقات الخلفاء والولاة ، وأخذت تتألف حول كل خليفة وأمير
أو حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسلية إن أراد التسلية
رأينا هذه الطبقة تعتمد حين تلم به مصيبة إلى تعزيتة فيها . ودار ذلك أكثر ما دار
حول فقد الأبناء وأقلاذ الأكباد ، فكان الشاعر إذا مات ابن " لخليفة يبادر إلى
تخفيف بلواه فيه بأبيات تحد من لوعته ، وتكسر من فجيعة ، بما يذكر من
أن الموت حتم واجب على الناس ، فكل نفس ذائقة الموت ، وكل إنسان راحل
إلى القبر ، على نحو ما قال بعض الشعراء لعمر بن عبد العزيز وقد توفى ابنه
عبد الملك :

تَعَزَّى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ لَمَّا قَدَّمَتْهُ يُغْذِي الصَّغِيرَ وَيُوَلِّدُ
هَلْ ابْنُكَ إِلَّا مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ لِكُلِّ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَةِ مَوْرِدُ

وقد يعرض الشعراء لمعان اجتماعية ، وخاصة معنى الشئامة في المصيبة ،
فيحدثون عن أن الموت لا يسلم منه أحد ، وأن من لم يدركه اليوم في عزيز له
يدركه غدا ، فَيُشْطَرُّ مِنْهُ أَصْلُهُ أَوْ فَرْعُهُ ، وَيُفْجَعُ فِي أَحَبَّتِهِ ، وَتُقَرَّحُ جَفُونُهُ فِي
أَهْلِ مَوَدَّتِهِ . وَالْمُتَّابِعُ ابْنَ عَبْدِ الْأَعْلَى بِهَذَا الْمَعْنَى فِي تَعَزِيَّتِهِ سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي
وَلِيِّ عَهْدِهِ وَأَكْبَرَ وَلَدِهِ أَيُّوبَ ، إِذْ يَقُولُ :

وَلَقَدْ أَقُولُ لَدَى الشَّيْئَةِ إِذَا رَأَى جَزَعِي وَمِنْ يَدِّي الْحَوَادِثُ يَجْزَعُ
أَبْشِيرُ فَقَدْ قَرِعَ الْحَوَادِثُ مَرَوْتِي وَافْرَحَ بِمَرَوْتِكَ الَّتِي لَمْ تُفْرَحِ
إِنْ عِشْتَ تُفْجَعُ بِالْأَحَبَّةِ كُلِّهِمْ أَوْ يُفْجَعُوا بِكَ إِنْ بِهِمْ لَمْ تُفْجَعِ
أَيُّوبُ مِنْ يَشَمَتْ بِمَوْتِكَ لَمْ يُطَاقْ عَنْ نَفْسِهِ دَفْعًا وَهَلْ مِنْ مَدْفَعِ

ووقف الشعراء في مرآى الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند
الله ، وأكثروا في ذلك كما أكثروا من الحديث عن خسارة الدين بموتهم وأنهار
أركانهم بفقدهم ، وفي ذلك يقول أشجع معزياً هرون الرشيد في ابن له مات شاباً :

نَقَصَ مِنَ الدِّينِ وَمِنْ أَهْلِهِ نَقَصُ الْمَنَايَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
قَدَّمْتَهُ قَاصِرًا عَلَى قَدَمِهِ إِلَى أَبِيهِ وَأَبِي الْقَاسِمِ

وهو يريد بأبي القاسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول له إنه في ميزانك
يوم القيامة ، وقد قدمته فلا تجزع ، واصبر حتى يكتب لك في باقياتك
الصالحات . ومن تعازى الخلفاء المشهورة في أبنائهم مرثية الشاعر المصري كمال
الدين بن النيه في علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، وهو يستهلها بقوله :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

والله لا يدعو إلى داره
والموت نقاذ على كفه
والمرء كالظل ولا بد أن
يلا من استصلح من ذا العباد
جواهر يختار منها الجياد
يزول ذاك الظل بعد امتداد

ثم أخذ يبكيه حتى انتهى إلى قوله :

خليفة الله اصطفى واحتسب
في العلم والحلم بكم يقتدى
وأنت لج البحر ما ضره
فأ وهى البيت وأنت العباد
إذا دجا الخطب وضل الرشاد
أن سال من بعض نواحيه واد

وكثيراً ما كان الشعراء يحولون التعزية إلى البكاء على الفقيد والإشادة به ،
كانهم يرون في ذلك ما ينفس بعض الشيء عن الأب الحزين ، وكانهم
يدأوون القرح بالقرح ، فهم يكون معه ويسترجعون حتى تثوب نفسه إلى رشدها
وتسكن بعد فورة الدموع وثورة النواح والأنين ، فقد أدبت للولد الحرقى وكأن
التراب لم يسوار إلا أعظمه ، أما ذكره فباقية ، وهى ذكرى تسبى ، ونفس البكاء
فيها هو الصبر والتأسى . ومعنى ثان في هذا العزاء ، كأن الشاعر يقول إن الناس
فداء هذه الخلال ، وليس بينهم إلا من يفدى الراحل الكريم . ومن هذا اللون
قول أبي تمام في ابنين لعبد الله بن طاهر صاحب خراسان لعهد المأمون ،
وكانا ماتا صغيرين في يوم واحد :

تجمان شاء الله ألا يطأ
إن الفجعة بالرياض نواضراً
لو يُنسان لكان هذا غارباً
لهفى على تلك الشواهد فيهما
لغدا سكونهما حجبى وصباها
لأجل منها بالرياض ذوايلاً
للمكرمات وكان هذا كاهلاً^(١)
لو أمهلت حتى تكون شمائل
خلفاً وتلك الأريحية نائل

(١) ينسأ : يؤجل ، والغارب : أسفل العنق إلى الظهر .

إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصيرُ بذراً كاملاً

فهو يبكي طفلين في المهد ، ومع ذلك أبي إلا أن يخلع عليهما شواهد لشمائل زكية ، وقد أخذ يصورهما بصور تكبر من المصيبة فيهما ، وكأنه يريد أن يشفي غُلَّةَ أبيهما ويطفىء حرقه فؤاده ، فهما روضان ذبلا في إبانهما ، وهلالان أصابهما المحاق في أولهما ، وهما نفضحة من أبيهما لم تلبث أن فثت وذابت في خِصَم الحياة .

ومن أطرف ما جاء في عزاء الأبناء مريئة للمتنبى في أبي الهيجاء بن سيف الدولة ، فقد رحل عن أبيه إلى الدار الباقية قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، فبكاه المتنبى وعزاه فيه بقصيدة رائعة من قصائده ، افتتحها بوصف الحزن عليه وخمش النساء لوجوههن ولطمهن وندبهن ، وقال إن مثله لا يُبكي عليه بقدر سِنِّه ، فهو صغير ، وإنما يبكي عليه بقدر أصله وشرفه ، ثم توجه إلى سيف الدولة قائلاً :

عزاءك سيف الدولة المقتدى به فإنك نَصْلٌ والشدائدُ للنَّصْلِ
ولم أرَ أعصى منك للحُزنَ عَبرَةً وأثبتَ عقلاً والقلوبُ بلا عقلٍ
ومن كان ذا نفسٍ كنفسِكَ حُرَّةً ففيه لها مُغْنٍ وفيها له مُسْلِي

ورجع يتحدث عن الموت الذي نزل بهذا الغلام مستعبداً باكياً ، مستخرجاً العظات على عاداته ، فالدنيا كلها غرور ، والبقاء فيها قليل ، واستمرَّ في ذمها ، حتى انتهى غاضباً إلى قوله :

وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمَّلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النَّسْلِ

والعزاء في الأبناء كثير ، أما البنات فيندر العزاء فيهن وخاصة في العصور الأولى ، وكان هذا أثر من آثار عرب الجاهلية الذين يقول فيهم القرآن الكريم « وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ، أيمسكه على هُونٍ أم يدسه في الترابِ ألا ساء ما يحكمون » .
ومن الخلفاء الذين حزنوا حزناً شديداً لفقد إحدى بناتهم الخليفة المهدي ،

ومن عزّاه فيها أبو العتاهية . وهذا بعض عزائه :

كَأَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ أَنْتَ ذَاتُهُ مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ يَحْكِي لَمَعَةُ الْآلِ
لَا تَلْعَبَنَّ بِكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى مَا شُئْتَ مِنْ عِبَرٍ فِيهَا وَأَمْثَالِ
مَا حِيلَةُ الْمَوْتِ إِلَّا كُلُّ صَالِحَةٍ أَوْ لَا فَمَا حِيلَةُ فَيْسُورِ الْمُحْتَالِ

ونعمة أبي العتاهية المشهور بها من الوعظ والتزهيد في الحياة وبيان أن كلها مصائب واضحة هنا . وهو من أكثر الشعراء حديثاً عن الموت ، وأنه لا بد واقد على حال ، فالعاقل من يتجهز له ويعد نفسه لفراق الأهل والمال .

وعزّى البحرى أحد بنى حميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنة له ماتت ، ومن الغريب أنه لم يجد باباً يدخله إلى عزائه فيها إلا ما كان يستشعره العرب في بناتهم ، فقد مضى يواسيه على هذا النحو :

الْأَسَى وَاجِبٌ عَلَى الْحُرِّ إِمَّا نَيْسَةُ حُرَّةٍ وَإِمَّا رِيَاءُ
أَتَبَكُّى مِنْ لَا يُفَارِزُ بِالسَّيِّئِ فِ مَشِيحَا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءُ^(١)
وَالْقَتَى مَنْ رَأَى الْقُبُورَ لِمَنْ طَا بَ بِهِ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْفَاءُ
لَسَنَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ لَعَدُّ اللَّهِ مِنْهَا الْأَمْوَالُ وَالْأَبْنَاءُ
قَدْ وَلَدَنَ الْأَعْدَاءَ قَدْ مَا وَرَثَ نَ التَّلَادِ الْأَقَاصَى الْبُعْدَاءُ^(٢)
لَمْ يَثْنُ تَرْبَهُنَّ قَيْسُ تَمِيمٍ عَيْلَةً بَلْ سَحِيَّةً وَإِبَاءَ^(٣)
وَتَلَفَتْ إِلَى الْقَبَائِلِ فَانْظُرُ أُمَهَاتٍ يُنْسَبْنَ أُمَ آبَاءِ
وَاسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَمَّا أَغْرَى بِهِ حَوَاءُ

(١) المشيع : المانع لما وراء ظهره .

(٢) التلاد : المال القديم .

(٣) قيس : هو قيس بن عاصم الهيمى ، وكان يثد كل بنت تولد له : والترب : الجماعة ، والعيلة : الفقير .

ولعمري ما العجز عندى إلا أن تبيت الرجال تبيكى النساء

فهو يحمد له موت ابنته ، وأن كان القبر كُفِّشَتْهَا ، ويأخذ في تعداد مساوى المرأة في رأيه ، فهي لا تنال الأبطال ، وقد تلد الأعداء ، وهي تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الأقاليم الغريبة . إن كل امرأة حرة بالموت ، وكان قيس بن عاصم — في رأيه — محقاً في وأد بناته ، ويقول إن الله لم يدهن في زينة الدنيا إذ قال جل وعز « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . وهذه مغالطة من البحترى ، لأنه يعزف أن جمع الذكور والإناث يغلب فيه الطُرف الأول ، فكلمة البنون في الآية الكريمة تشمل البنات ، وقد رأينا حلة القرآن على العرب لنفس هذا الموقف الذى يقفه البحترى . وغالط مغالطة أخرى في أن العرب لا تنسب إلى الأمهات . بينما النسب إلى الأمهات عندهم شائع في القبائل وفي الأفراد .

والحق أن العزاء هنا يتحول إلى ما يشبه هجاء المرأة . وهى على كل حال نظرة تستمد من القديم . وتلا البحترى كثير من الشعراء يذهبون هذا المذهب مثل كشاجم في قوله :

تأس يا أبا بكر	لموت الحرّة البكر
فقد زوجتها القبر	وما كالتبر من صهر
وعوضت بها الأجر	وما كالأجر من مهر
زفاف أهديت فيه	من الخدر إلى القبر
وقد يختار في السكرو	• للمرء وما يذرى
فقابل نمة الله	وما أولاك من شكر

ولعل من الواجب أن نذكر هنا أن هذه النظرة تغيرت في عصرنا ، ولم يعد لها ظل ولا ما يشبه الظل في شعرنا ، إذ أصبح للمرأة شأن كبير في حياتنا ، وأصبحت ركنا قويا في معيشتنا المادية والعقلية ، ولم تعد هينة على النفوس ، بل

أصبحت ذات منزلة كبيرة ، وقد ساهمت في كل شئوننا أثناء السلم وفي الحرب ، ونالت كثيرا من حقوقها ، وهي في سبيل الظفر ببقية الحقوق . ومن هنا اختلفت اللهجة في رثائها وفي التعزية فيها ، ولم تعد مثل أفكار البحري وكشاجم تجري على ألسنة الشعراء ، إنما يجري مثل قول حافظ معزياً للبارودي في كريمته :

يا بنتَ (محمود) يمزُّ على الورى	لَسُ الترابِ لجسمكِ المنهوك
تركوا شبابك فيه نهياً للبلى	واهاً لغضِّ شبابكِ المترك ^(١)
وحثوهُ فوق سداكِ يا شمس الضحى	فبكى له بدْرُ السماء أخوك ^(٢)
يا نفسَ (محمود) وأنتِ عليمَةٌ	بطريقِ هذا العالمِ المسلوک
عهدوكِ لا تتصدَّعينِ لحادثٍ	أو أنتِ باقيةٌ كما عهدوكِ
هذا التراب—وأنتِ أعلم—ملتقى	هذا الورى من سوقٍ وملوك

وهذه نعمة أخرى فيها تقدير ، واعتراف بجلال الرزء . وقد مرَّ في حفلات التأين ما يوضح المساواة التامة في عصرنا بين فقد النساء وفقد الرجال

على أن شعراءنا القدماء إذا كانوا قد قصروا في رثاء البنات فلم ينقصوا في رثاء الأخوات والأمهات وربما كان المتنبي خير من عزى فيهن ، فقد توفيت أخت سيف الدولة ، وهو نازل برحابه ، يغمره بصلاته ، فنظم فيها قصيدة بديعة من قصائده ، تحدث فيها عن غدر الموت وأثر نعيها في الناس وأثنى على خلالها وصفاتها ، وما زال يثني عليها ، حتى قال :

فإن تكن خَلِقتُ أَثْنَى لقد خلقت	كريمةً غير أثنى العقل والحسب
وإن تكن تَغْلِبُ الغلباءَ عنصرَها	فإن في الخمر معنى ليس في العنَبِ
فليت طالعةُ الشمسين غائبةٌ	وليت غائبةُ الشمسين لم تَغِبْ

(١) الغضب : الناعم .

(٢) حشا التراب : هاله .

فهي إن كانت أنثى الحلقة فإنها في الشرف والعقل أعلى من الرجال ، وإن يكن أصلها التغلبي كريما فإنها أفضل من أصلها لحاسنها وشيمها ومعانيها الطيبة ثم يتمنى لو أن الشمس غابت وفقدت ، ولم تغب أخت سيف الدولة ولا فقدت . والتفت المتنبي بعد ثنائه إلى سيف الدولة يحدثه عن الأيام وعن أخت له قبلها فقدتها ، وأشاد به ، ودعا له أن لا تناله الليالي فإنها إن ضربت أصمت ، وحطمت القوى بالضعيف ، كما دعا له أن لا تعين من عاداه ، ثم تحدث عن فجعات الدهر وأن الإنسان يصاب دائماً بمحن ليست في حسابه .

وللمتنبي تعزية أخرى لسيف الدولة في أمه ، وهي لا تقل عن هذه التعزية روعة ولا جمالا ، افتتحها بأننا نعد السيوف والرماح لمنازلة الأعداء ، وتخترمنا المنون دون قتال أو نزال ، ومضى يتحدث عن عشق الناس للعنقا ، وكيف أن وصالها لا يدوم . وتحول يصف كثرة ما يتوالى عليه من مصائب الدهر ، ثم انتقل إلى رثاء أم سيف الدولة فأبنتها مبالغا في تأبينه ، مضيفا عليها خير الصفات وأجملها وأنبلها ، وما زال في ذلك ، حتى قال مخاطبا سيف الدولة :

أَسَيْفَ الدَّوْلَةِ اسْتَنْجِدْ بِصَبْرِ وَكَيْفَ بِمَثَلِ صَبْرِكَ لِلْجِبَالِ
فَأَنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ التَّعَزَّى وَخَوْضَ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السَّجَالِ
وَحَالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ

فهو يدعو أن يستعين على مصيبتيه في أمه بالصبر ، لأنه أهله ، إذ له ثبات يفوق ثبات الجبال وركائنها . ثم قال له : إن الناس يتعلمون منك العزاء والصبر على اقتحام الموت وغمراته الشداد ، وإن الزمان نفسه ليتلون كالحرباء بألوان مختلفة في السراء والضراء ، أما أنت فتثبت على حال واحدة في الشدة والرخاء ، فمثلك حري بأن لا يهن في هذه النازلة ، وأن لا يصيبه خور ولا ضعف . ومن أبيات هذه المراثية :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَمَا التَّأْنِيثُ لَأَسْمَ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكَيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ

وواضح أنه احتج لتفضيل النساء على الرجال بحجة لطيفة ، فالشمس مؤنثة وهي تفضل الهلال بنورها الذي يغمر الآفاق .

العزاء والتهنئة

لم نتحدث عن العزاء في الآباء وهو كثير ، غير أننا نقف منه عند موضوع طريف ، وذلك أن الخلفاء والسلاطين كانوا يتوارثون دولهم وإماراتهم ، فكان الشاعر يقوم بين يدي الخليفة أو السلطان الجديد يعزيه في أبيه وبهنته بحكومته ودولته وما انتهى إليه من خلافة أو إمارة .

وأول من فتح هذا الموضوع ، وأظهر براعة فيه عبد الله بن همام السلولي ، وذلك أن معاوية توفي وخلفه ابنه يزيد ، فلم يقدم أحد على تعزيتة لدقة الموقف وصعوبته ، وما زالوا كذلك حتى فتح لهم ابن همام باب الكلام ، فقال :

أصبرُ يزيدُ فقد فارتَ ذامِقَةٌ واشكرُ حِباءَ الذي بالملكِ حابا (١)
لا رُزءَ أعظمُ في الأقوامِ قد علموا مما رُزئتَ ولا عُقبي كعُقبِا
أصبحتَ راعيَ هذا الخلقِ كلهمُ فأنتَ ترعاهمُ واللهُ يرعا
وفي معاويةَ الباقي لنا خَلَفٌ إذا بقيتَ فلا نَسَمَعُ بمنعاً

ومعاوية الذي يشير إليه في البيت الأخير هو ابن يزيد وولي عهده . والأبيات فيها براعة ، وفيها دقة بعيدة في الإحساس ، ولطف ورقة في الشعور .

ومن وقف هذا الموقف الدقيق ، وأحسن فيه ، بل كاد يقلب لحظته الحزينة إلى لحظة سرور وفرح أبو الشَّيْص الشاعر العباسي ، فإنه قام بين يدي الأمين بعد وفاة أبيه هارون في طوس إحدى مدن إيران ، فقال :

جَرَّتْ جَوَارِي السَّعْدِ والنَّحْسِ فنحن في وحشةٍ وفي أنسٍ

(١) المقة : المحبة ، والحباء : السطاء .

العَيْنُ تَبْكِي وَالسِّنُّ ضَاحِكَةٌ فَتَحْنُ فِي مَاتِمٍ فِي عُرْسِ
يُضْحِكُنَا الْقَائِمُ الْأَمِينُ وَتُبُّ كَيْنَا وَفَاةَ الرَّشِيدِ بِالْأَمْسِ
بَدْرَانِ : بَدْرٌ أَضْحَى بِنِغْدَادٍ فِي الْ خُلْدِ وَبَدْرٌ بَطُوسَ فِي الرَّمْسِ (١)

وتعبر هذه الآيات خير تعبير عن فرحة الشعراء بالأمين ، إذ كان محبوبا منهم ، قريبا إلى نفوسهم .

ولما توفي المعتصم وخلفه ابنه هرون الواصل تقدم إليه أبو تمام يعزيه ويهنيه بقصيدة طويلة ، افتتحها بالحزن على الراحل والإشادة بمناقبه ومحامده ، وما زال يدور في هذين المعنيين حتى قال :

مَا دَامَ هَرُونَ الْخَلِيفَةُ فَالْهَدَى فِي غَبْطَةٍ مَوْصُولَةٍ بِدَوَامِ
لَهُ أَيْ حَيَاةٍ انْبَعَثَ لَنَا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَبَعْدَ أَيْ حِمَامِ (٢)
تِلْكَ الرِّزْيَةُ لَا رَزِيَّةَ مِثْلَهَا وَالْقَسَمُ لَيْسَ كَسَائِرِ الْأَقْسَامِ
مَا إِنْ رَأَى الْأَقْوَامُ شَمْسًا قَبْلَهَا أَفَلَتَ فَلَمْ تَعْقِبْهُمْ بِظِلَامِ
أَكْرَمَ يَوْمِهِمُ الَّذِي مُلْكَتْهُمْ فِي صَدْرِهِ وَبِعَامِهِمُ مِنْ عَامِ

واستطرد في مدح الواصل بعد ذلك .

وعلى هذه الشاكلة أخذ الشعراء يصنعون في العزاء والتهنئة قصائد يعلمون فيها بفضائل السابق واللاحق ، ويقولون إن ميزان الدولة والأمة لن يميل ، إذ تولته يد عادلة ، بل إن هذا الخليفة الجديد أرسلته العناية الإلهية لتجبر به الأمة ، ويتم لها صلاحها واستقامتها . وكثير هم الشعراء الذين وقفوا هذا الموقف ، ومن جلّى فيه عبد الله بن الحسن الجعفي ، فقد مثل بين يدي العزيز الخليفة الفاطمي يعزيه في أبيه ويهنئه بخلافة مصر قائلا :

(١) الخلد : قصر الخلافة ببغداد ، الرمس : القبر .

(٢) الحمام : الموت .

قد أصبح الجوهر العلوي منتقلا في خير من كان من خير الوري بدلا
يا منحة كملت في محنة عظمت لولاك في الدهر ما نال امرؤ أملا
قام العزيز بما أفضى المعز به إليه مضطلما بالعبء مختملا
فقام أحفظ مسترعى رعى فكفى من بعد خير إمام قوم الليلا^(١)
فإن مضى كافل الدنيا وما ضمنت فذا ابنه كافل عنه بما كفلا^(٢)
وإن هوى الجبل الراسي فذا جبل راس لنا بعده أعظم به جبلا
عمت خلافته الدنيا بروقتها كأنه الشمس فيها حلت الحلا^(٣)

وفي الأبيات نزعة شيعية واضحة ، فهو يتحدث عن الجوهر العلوي وكيف انتقل من المعز إلى ابنه ، ويسميها كافي الدنيا ، ويجعل العزيز أحفظ من رعى العباد ، وما يزال يقابل بين الأب وابنهما مترحما معزيا ، ومادحا مهتبا ، مستظهرا لبعض العقائد الشيعية .

ومن أجاد في هذا الموضوع ابن زيدون شاعر الأندلس المشهور ، فقد توفي أبو الحزم جهنور ملك قرطبة ، وخلفه ابنه أبو الوليد ، وكان صديقا له ، فنظم قصيدة بارعة ، استهلها بالعزاء والتهنئة على هذا النمط :

ألم تر أن الشمس قد ضمت القبر وأن كفانا فقد لها القمر البدر
وأن الحيا إن كان أقلع صوبه فقد فاض للآمال في إثره البحر^(٤)
إساة دهر أحسن الفعل بعدها وذنب زمان جاء يتبعه العذر
فلا يتهن الكاشحون فما دجا لنا الليل إلا ريثا طلع الفجر^(٥)
فقل للحيارى قد بدا علم الهدى وللطامع المغرور قد قضى الأمر

(١) الميل : المعوج .

(٢) الكافل : الفاسد .

(٣) الحمل : أول البروج .

(٤) الحيا : المطر : والصوب : الانصباب .

(٥) الكاشحون : الأعداء .

وفي كل مكان من العالم الإسلامي نجد الشعراء يقفون هذا الموقف من
الحكام ، يعزونه ويهتئونهم معبرين عن فرحة الناس بهم واستبشارهم بتسلمهم
للقاليد الأمور بعد آباءهم ، منوّهين بما تأمله البلاد من نعم ثم وآلاء نعم .
ولا بن نبأة أبيات تدور على كل لسان قالها يعزى بها السلطان الأفضل صاحب
حماة في أبيه ويهتئ على تحول الملك إليه ، وهي تجرى على هذا النحو :

هنا سحا ذاك العزاء المقدما	فما حبس الحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع	شبهان لا يمتاز ذو السبق منهما
سقى الغيث عنا ترربة الملك الذي	عهدنا سبجاياء أبر وأكرما
ودامت يد النعمى على الملك الذي	ثدانت له الدنيا وعز به الحصى
مليكان : هذا قدهوى لضريحه	برغى ، وهذا للأسرة قد سما

وكل هذه براعات تفنن الشعراء في إخراجها وتصويرها ، حتى يقلبوا الحزن
مسرة والبؤس نعيما ، فإذا كان اليوم قد استهل عابسا مكفها ، فإنه انفرط مستبشرا
مبتهجا ، إنه يوم ماتم وعرس ، وشقاء وسعادة ، وظلام وضياء ، والضياء هو الذى
يسود ويشرق في جنبات الدولة والأمة كما يشرق النهار . والحق أن شعراءنا
أجادوا في هذا الموقف ، واستوفوا فيه حظوظا لا بأس بها من المقدرة والمهارة .

٤

الحياة والموت والخلود

دارت هذه المعانى الثلاث في كثير من قصائد العزاء ، إذ كان من
يبكى ميتا أو يعزى فيه يعرض للحياة وأنها زائلة ، وأن الموت نهاية كل
شخص ، وأن على الناس أن يفكروا دائما في هذا المصير الذى ينتظرهم ، وأن
يتجهزوا له ويعدوا زادهم قبل أن تأزف الآفة وتحل الكارثة ، وهي كارثة مقررة

لا مفرّ منها ولا محيص .

وكانت هذه الأفكار تمر بمخيلة الشاعر الجاهلي ، وكان يلم بها ، ولكن في سداجة وبساطة تلائم حياته ، فلما ارتقى العقل العربي أخذت هذه الأفكار تتشعب وتتفرع ، وتمدّ جلورها في طبقات جديدة من الثقافة وفهم الحياة وما قرأ العرب عند الأمم الأجنبية من حكم وآراء فلسفية .

وأبو العتاهية الشاعر العباسي أول من بسط الحديث في الموت والحياة ، وساعده في ذلك أنه ساق شعره في ميادين الزهد والوعظ ، واتخذ من الموت أساساً لتنفير الناس من الحياة وبيان أن نعيمها لا قيمة له وكذلك كل ما يتصل بها ، فالمنية تغدو على الناس وتروح ، وكل سيموت ، ولو عُمرَ ماعمر نوح ، فالموت هو النهاية والغاية ، وهو الدائم المستمر ، أما الحياة فسرعان ما تنمحي وتزول ، ولا يبقى للإنسان إلا الصالحات . وهو يبدى ويعيد في أن الناس وقوف على هوة تحت أقدامهم ، وكل فرد يهوى فيها بدوره ، فلا يغرن أحدا الغرور ولا ما يعيش فيه من ترف ونعيم ، فإن ذلك سرعان ما تبدل أزهاره ، وتتحطم محضره أمام الموت الرهيب ، واسمعه يقول في بعض من رثاهم :

لقد كنتُ أغدو إلى قَصْرِهِ	وقد صِرْتُ أَغْدُو إلى قَبْرِهِ
أنته المنيّةُ مُنْتَالَةٌ	رويداً ، تَخْلُلُ من سِتْرِهِ
فلم تُفَنِّ أَجْنَادُهُ حوله	ولا المزمعون على نَصْرِهِ
وخلّى القصورَ لمن شادها	وحلّ من القبر في قعرهِ
وبدّل بالفرشِ بُسْطَ الثرى	وطيّبَ ندى الأرض من عطرهِ
وأصبح يَهْدَى إلى منزلِ	عميق تُؤنِّقُ في حَفْرِهِ
تُفَلِّقُ بالسرب أبوابهُ	إلى يوم يؤذّن في حَشْرِهِ
أشدُّ الجماعة وَجْداً بِهِ	أشدُّ الجماعة في طَمَرِهِ (١)

وكان المنيّة تتحول عند أبي العتاهية إلى موعظة ، يتخذ فيها العبرة والمثل من

الموت ، فالتناس ولدوا للموت ، وكل ما بينونه من قصور يؤول إلى خراب ، وكل ما يتخذون من عز الدنيا يؤول إلى ذلّ القبر ووحشته . وها نحن ندفن بأيدينا من نحبيهم ، ونلقى بهم وراء التراب والأحجار ، ألا ما أحقر الدنيا وكل ما فيها من سرور المجد وأبهة الترف والنعيم ! . والحكيم من ذهب إلى ما يُريه العقل منها ومن نهايتها المحتومة لا إلى ما تريه العين من مباحجها الكاذبة ومفاتها الخادعة .

وما يزال الشعراء بعد أبي العتاهية يشدون في قيثاره شعرهم هذا الوتر حين يرثون ، حتى يطلع المتنبي فيضيف وترا جديدا وأنغاما جديدة ، وذلك أنه كان حانقا على الدهر ، لأنه لا يحقق له آماله ، وكانت آماله فوق أن تتحقق ، إذ طلب فيما طلب الملك والسيادة ، فغضب على الدنيا والزمان ، وذهب بهجوها هجاء قبيحا في شعره . وأخذ نفسه بقراءة الفلسفة وما شاع عند العرب ومتفلسفيهم من حِكَم تتصل بالدهر وما يُسرّمى به الإنسان من سهام الزمن . فلون شعره بألوان فلسفية ، فيها الحكمة وفيها العبارة المنقولة عما قرأ ، ومن هنا اصطبغ رثاؤه بلُصْبَاح لم تكن معهودة للعرب ، كقوله لسيف الدولة يعزيه عن أخته الصغرى :

ولذيذُ الحياة أنْفَسُ في النَّفْسِ وأشهى من أن يُمَلَّ وأحلى
وإذا الشيخُ قال أفَ فما مَلَّ حياةً وإنما الضعفَ مَلًا
آلَةُ العيشِ صِحَّةٌ وشبابٌ فإذا وَلَّيَا عن المرءِ وَلَّى
أبدأ تَسْتَرِدُّ ما تهب الدُّنْيَا فياليت جودها كان بُخْلا

فهو يقول إن ما تستلذه النفوس من الجانِب المادى في الحياة يجعلها تستطيلها وتستديمها ولا تملها ، يشير بذلك كما يقول شارحوه إلى ما شاع عند الحكماء من أن النفس تتعلق بالهمم الترابية ، ولا تتعلق بالعالم العلوى إلا إذا شَقَّتْ وصَفَّتْ من كثرها . وفي البيت الثاني يؤكد هذا المعنى ، فالشيخ لا يسأم الدنيا وإنما يسأم ضعفه وهرمه . والحياة إنما تطيب — كما يقول في البيت الثالث — بالشباب وصحة الجسم ، فإذا ذهباً عن الإنسان فسد عيشه . وفي البيت الرابع يردد حكمة معروفة ونهى : الدنيا تطعم أولادها وتأكلهم . وعلى هذا النحو يربط شراحه دائماً بين

شعره وبين الحكيم التي كانت تروى لعهد من المتفلسفة والحكماء ، ومن هنا نقول إنه أدخل على القيثارة العربية وترأ جديدا ، يسقط منه هذا النغم وما يماثله . ولعل أهم مرائيه التي يتضح فيها هذا الجانب مراثيه التي يعزى بها عضد الدولة بن بويه وقد ماتت عمته ، إذ يقول في تضاعيفها :

نحن بنو المَوْتِ فما بالنا نعاْفُ ما لا بُدَّ من شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بأرواحنا على زمان هي من كَسْبِهِ
فهذه الأرواح من جَوْهِ هذه الأجسام من تَرْبِهِ
لوفكر العاشق في مُنْتَهَى حُسْنِ الذي يَسْبِيهِ لم يَسْبِهِ
لم يُرَ قَرْنُ الشمس في شَرْقِهِ فشَكَتِ الأنفُسُ في غَرْبِهِ (١)
يموتُ راعى الضَّانُ في جهله مَوْتَةً جالينوسَ في طَبِّهِ
وربما زاد على عُمرِهِ وزاد في الأَمْنِ على سِرْبِهِ (٢)

وقد أشار السابقون إلى أن البيت الثاني منقول من قول بعض الحكماء . « إذا كان نشوء الأرواح من كروور الأيام ، فما لنا نعاْف رجوعها إلى أماكنها » وكذلك البيت الثالث مأخوذ من قول أحد الحكماء : « اللطائف سماوية والكثائف أرضية وكل عنصر عائد إلى عنصره » يريد أن الإنسان مركب من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، والأول من الجو والهواء ، والثاني من الأرض والتراب ، وهو نفس ما جاء في بيت المتنبي . وزعموا أن البيت الرابع مشتق من قول بعض الحكماء : « النظر في عواقب الأشياء يزيد في حقائقها ، والعشق عمى الحسَّ عن درك رؤية المعشوق » .

والحقيقة أن الأبيات كلها يظهر عليها أثر القراءة في كتب الفلسفة . ولا ريب في أن المتنبي كان يقرأها ، وقد كان القارأي أحد خُلَطَّائه في حضرة سيف الدولة ، ولا بد أنه قرأ كتبه ، كما قرأ لغيره من المتفلسفة ، ونقل عما قرأ هذا النقل

(١) قرن الشمس : أول ما يبدو منها .

(٢) السرب هنا : النفس والأولاد .

البدیع ، فشتان بین العبارة الأصلية وما صارت إليه ، فقد أصبحت تلمع وتومض وكأَنَّها النجم الثاقب ، إذ كانت للمتنبي مقدرة لا تبارى في الحشد والتركيز . وانظر إلى البيت الخامس الذي ركز فيه فكرة الفناء وأن حدوث الأشياء يقترن به زوالها ، فقد استعان بصورة قوية تلخص فيها كل ما أراد بيانه فن رأى الشمس طالعة عرف أنها لا بد غاربة . وركز في البيت السادس فكرة أن الموت لا يسلم منه وضعيع ولا شريف ولا جاهل ولا عاقل ولا طيب ولا مطبوب ، وجالينوس طيب وفيلسوف يوناني مشهور . وتوغل في المعنى ماخرا ، فقال إن راعى الضأن ربما زاد على جالينوس عمرا ، وكان آمنا على نفسه وولده مع جهله وقلة عمله وعلمه .

وما يزال المتنبي يعرض مثل هذه الأفكار وأن الموت غاية كل حي ، وأن الدنيا ليست إلا طريقا إليه ، وأن كل إنسان بل كل ما في الكون ينتهي إلى فساد . ويخلفه أبو العلاء فيجتمع عليه إحساسه الحزين بعاهته وفقد بصره ، وما قرأ في كتب الفلاسفة عن التشاؤم والزهد في الدنيا ، وما قرأه عند المتنبي من صخط على الحياة وذم شنيع لها . ويحول كل ذلك في قلبه إلى بركان ثائر لا يهدأ ولا يسكن أبدا ، بل ما يزال يلفظ بالحُمم ، ولا يزال يتطاير شررها في شعره . ومن أروع مرثياته قصيدته التي يري بها فقها حنفيا ، وهي تنفجر مند مطلعها بهذا السيل الحزين ، إذ يقول :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحٌ بِالْكِ لَا تَرْتُمُ شَادِي^(١)
 وَشَبِيهُ صَوْتِ النَّعْمِيِّ إِذَا قِيدَسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي
 أَبَكْتَ تِلْكَمُ الْحَامَةُ أَمْ غَنَسْتُ عَلَى قَرَعِ غُصْنِهَا اللَّيَادِي
 صَاحَ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلَّأُ الرُّحُوبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ^(٢)
 خَفَّفَ الْوَطَاءُ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْإَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

(١) الشادي : المني .

(٢) عاد : من القبائل العربية القديمة التي هادت

وقبيحٌ بنا وإن قَدُمَ العهدُ دُ هوانُ الآباء والأجدادِ
 سِرٌّ إن اسطعتَ في الهواءِ رويدًا لا اختيلا على رفات العباد^(١)
 رَبُّ لَحْدٍ قد صارَ لحدًّا مرارًا ضاحكٍ من تزام الأضدادِ
 ودفين على بقايا دفين في طويل الأزمان والآبادِ
 تعبٌ كُلُّها الحياةُ فما أغـ جَبُّ إلا من راغبٍ في ازديادِ
 إن حزنًا في ساعة الموت أضعا ف سرورٍ في ساعة الميلادِ
 خُلقَ الناسُ للبقاء فضلتُ أمةٌ يحسبونهم للنَّفادِ
 إنما يُنقلون من دار أعمى لـ إلى دار شِقْوَةٍ أورشادِ
 ضجعةُ الموت رقدةٌ يَستريح الـ جِسمٌ فيها والعيشُ مثلُ الشهادِ

فهو يقول إن نوح الباكي الحزين وغناء الشادى الفرح كلاهما لا يفيد
 الإنسان ولا يحمديه نفعا في هذه الحياة المظلمة البائسة الشقية ، وإنه ليسمع فيجد
 صوت الناعى التاكل كصوت البشير المهنيء ، فالصوتان يتشابهان في
 كل شيء ، وهذا الحمام طالما قال الشعراء إنه ينوح ، وأبو العلاء لا يستطيع أن
 يجزم بذلك ، فهو لا يدري أينوح أم يغنى . إن الغناء والنواح جميعا يتشابهان
 عليه ، كما تشابه الدنيا في مسراتها وأحزانها ، فهي جميعاً تستوى وتتحد في رأيه ،
 وتكون هذا الظلام المطبق الذى يضغط على أنفاسه .

ويلتفت إلى سامعه وقارئة ليريه أن الدنيا كلها ليست إلا جنازة قائمة ومقبرة
 كبيرة تمتد من أقدم العهود ، من عهد عاد إلى عهده ، وغاية الأمر أن كثيرا من
 أجزائها انمحت معالمه ، فتنسیر اليوم عليه غافلين ، وما أحرانا أن نسیر هونا ،
 لأننا نسیر على أديم مؤلف من أجساد الآباء والأجداد ، وأولى بنا أن نكرمهم وأن
 لا نهينه حفظا لحقوق الأسلاف . ويسخر منخرته الرائعة من أن اللحد الواحد قد
 يضم أشخاصا متباينين بين صالح وطالح وجاهل وعالم وغنى وفقير ، حتى إن
 اللحد نفسه ليضحك ويعجب من اجتماع الأخيار والأشرار فيه .

وواضح أن الأبيات تحمل تشاؤم أبي العلاء وشكّه في الخير والشر وازدراءه للدنيا وكل ما فيها . وبعد أن بلغ بنا هذا المبلغ من السخط عليها لما تحمل من شقاء الإنسان وعذابه أخذ يعجب لمن يرغب فيها مع كل هذا الأذى ومن يريد أن تطول مدته فيها مع كل هذه التعاسة . وقارن بين السرور في الميلاد والحزن في الموت فوجد الثاني يزيد الأول أضعافاً مضاعفة ، وما الحياة كلها في رأيه إلا سجون من الحزن والضيق وغياهب من الألم والعذاب .

واطمأنت نفسه بعض الاطمئنان ، فتحدث عن بقاء الإنسان بعد الموت ، فقرر خلوده ، وردّ قول من يقول بالفناء ومن ينكرون البعث والحساب والنعيم والجحيم والجنة والنار ، فالناس خلّقوا للأبد وللبقاء دون الفناء ، وما الموت إلا انتقال من دار إلى دار ، هي دار الخلود التي فيها يعذب الجاني الشقي وينعم الراشد السعيد . وانتهى في البيت الأخير إلى تشبيه الحياة باليقظة والموت بالنوم ، وكأنه يفضل الموت على الحياة ، فالعين ترتاح إلى النوم ولا ترتاح إلى السهد ، بل تشقى به وتتعب .

وهذه الأفكار والمعاني الدائرة حول الحياة والموت والخلود التي تناولها أبو العتاهية والمتنبي وأبو العلاء تعلّق بها شعراء الرثاء في الأقطار الإسلامية المختلفة ، فأينما وليت وجهك رأيت أَسْرَاباً منها في رثاء الشعراء ، إذ أعجبوا بها إعجاباً لا حد له ، فذهبوا يطوفون حولها ، ويتشبهون بها ، ويستوردون في أشعارهم منها ، وخاصة من المتنبي وأبي العلاء ، فقد عَنَتَ لهما وجوه الشعراء على مر العصور ، وأصبحت المورد الذي لا ينقذ ، والكثرة الذي لا يفنى .

ومن أفاد منهما لعصرنا في مراثيه شوقي ، فإِنَّهُ عَنَى بقراءة شعرهما ، والاحتذاء على مثاله ، في كل ما نظم وصاغ من قصيد . وعاش يقلد المتنبي خاصة في حكمه وكثرة ما ينثر منها في شعره .

وقد نقل ظاهراً من أفكار أبي العلاء ، وإن لم يكن له تشاؤمه ولا يؤسه ، ولكن ما يزال يعنى بتقليده ونقل بعض أفكاره ، وأقرأ لهذه المقدمة في رثاء جدته :

خُلِقْنَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ وَمِنْ هَذَيْنِ كُلُّ الْحَادِثَاتِ
وَمَنْ يُؤَلِّدُ يَمُوتُ وَيَمُتُ كَأَن لَمْ يَمِرْ خِيَالُهُ بِالسَّكَاتِ

ومَهْدُ المرءِ في أيدي الرّواقِ كنش المرء بين النائمات^(١)
وما سَلِمَ الوليدُ من اشتكاه فهل يخلو المعمرُ من أذاه
هي الدنيا قتالٌ نحن فيه مقاصدُ للحسامِ والقنساءِ
وكلُّ الناسِ مدفوعٌ إليه كما دُفِعَ الجبانُ إلى الثباتِ
نَزَّوعٌ ما نزَّوعٌ ثم نُرْمَى بسهمٍ من يدِ المقدوراتِ

وتستطيع أن تلاحظ المشابهة بين هذه الأبيات وبعض أبيات أبي العلاء السابقة ، ولكنه إنما يتناول ظاهرا منها ، لأنه لم يكن عميق الفكر مثله ، ولا كان له فلسفته ولا بؤسه النفسى . وقد ذهب يكثر — على شاكلة المنبى — من الحكم ، ومن طريف ما جاء به منها في مراثيه قوله في مرثية محمد فريد التتى صاغها صياغة على نمط مرثية أبي العلاء السابقة :

كرة الأرض كم رمت صَوْلَجَانَا وطوت من ملاعبٍ وجيادِ
والغبارُ الذى على صفحتها دورانُ الرّحى على الأجسادِ

ويقول في رثاء مصطفى كامل :

دَقَّاتُ قَلْبِ المرءِ قاتلةٌ له إن الحياة دقائقٌ وثوانى
فارفعْ لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانى

ولكن هذه الحكم وما يشبهها عنده ليست ثمرة غضب على الحياة ولا زهد فيها ، وهى لذلك لا تكون لها روعتها عند الشعراء الثلاثة السابقين ، فقد كان المنبى برما ساخطا على الحياة بل ثائرا ثورة عنيفة ، ولذلك كان ذمه فيها طبيعياً ، وكذلك ذمُّ أبى العتاهية وأبى العلاء ، إذ كانا رافضين لها زاهدين فيها زهدا حقيقيا ، فطبعى أن يشوهوها وأن يقبحوها وأن لا يروا منها إلا الجانب

(١) الرواق : الأمهات تعلق التماويل والتأمل على أولادها .

الأسود البغيض ، أما شوقي فشئء من ذلك كله لم يكن كامناً في نفسه ، ولذلك يبدو فيه التكلف والتصنع وأن الأفكار لا تنبع من قلبه ، ولا تجري من داخله ، ولولا مهارته الموسيقية وإبداعه الفني لبان عجزه وضعفه وتكلفه .

وربما كان نسيب عريضة الشاعر المهجري أهم المعاصرين تعبيراً في رثائه عن الخلود ، فله مرث في أخيه ، بكاه فيها ، وليس هذا ما يهمنا ، إنما يهمنا أنه وقف عند فكرة الصراع بين الجسد والروح وأطال الوقوف نافذاً إلى فكرة الخلود . ونخير ما يصور ذلك مرثيته «ذكرى الغريب» وهو يفتتحها على هذه الشاكلة :

غريبٌ على الباب يرجو الدخولاً	أثار النوى فيه شوقاً طويلاً
ألا أدخِلهُ أهيلَ الخلودِ	إليكم ولا تحرموه مقيلاً ^(١)
قضى العمرَ في التَّيه في القفر حتى	نفتت الحياةُ فآلَى السَّيلا
وأبصر أنواركم في اشتعالِ	فسار إليها يروم الوصول
أهيلَ الخلود افتحوا فهو منكم	وهيأت عن بابكم أن يمينا
تعرَّب في الأرض عمراً قصيراً	ولم يك في الناس إلا دخيلاً
تخلص لا آسفاً من حِمام	وحطمت أشرآهم والكبولا
وأغفل في الأرض أهلاً ورباً	وألقى رداء التراب الثقيل

والمرثية طويلة ، وهي تدور كلها حول المعاني التي نراها هنا ، فأخوه قد اغترب حقبة من الزمن في الأرض ، وكأنه كان في تيه أو في قفر ، ومع ذلك كان لا يزال يرقب أنوار الخلود ، ويتوجه إليها مصعبداً في الدَّرب ، وما زال يرقى على الدَّرج حتى قرع الباب يريد الدخول والوصول . وها هو ذا قد وصل بعد تأيه واغترابه وبعد أن تخلص من سور التراب وأشراكه . ولاريب في أننا نستشف هنا نزعة صوفية ، وهي تتغلغل في شعر نسيب ، وتجعل لراثه صورة روحية جديدة في شعرنا ، تخالف الصورة التي رأيناها عند الشعراء السابقين .

(١) المقيلا : المكان الذي نستريح فيه وقت القيلولة .

الفهرست

صفحة	
٥	مقدمة
٧ - ١١	تمهيد
٧	(١) الرثاء في أدبنا العربي
٩	(٢) في الآداب العالمية
١٢ - ٥٣	الفصل الأول : النذب
١٢	(١) معنى النذب
١٣	(٢) نذب الأهل والأقارب
٣٠	(٣) نذب الشعراء أنفسهم
٣٥	(٤) نذب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم
٤٠	(٥) نذب الدول
٤٧	(٦) نذب البلدان
٥٤ - ٨٥	الفصل الثاني : التأيين
٥٤	(١) معنى التأيين
٥٥	(٢) تأيين الخلفاء والوزراء
٦٢	(٣) تأيين الأشراف والأجواد والقواد
٧٠	(٤) تأيين العلماء والأدباء
٨١	(٥) حفلات التأيين الحديثة
٨٦ - ١٠٧	الفصل الثالث : العزاء
٨٦	(١) معنى العزاء
٨٨	(٢) العزاء في الأهل
٩٦	(٣) العزاء والتهنئة
٩٩	(٤) الحياة والموت والخلود

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار

عرض ودراسة

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي

* العصر الجاهلي

الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة

* العصر الإسلامي

الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة

* العصر العباسي الأول

الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة

* العصر العباسي الثاني

الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة

* عصر الدول والإمارات (١)

الجزيرة العربية - العراق - إيران

الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

* عصر الدول والإمارات (٢)

مصر - الشام

الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة

* الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة

* التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة

* دراسات في الشعر العربي المعاصر

الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة

* شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

* الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات

* البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة

* الشعر والغناء في المدينتي ومكة لعصر

بني أمية

الطبعة الرابعة ٢٣٦ صفحة

* البحث الأدبي : طبيعته - مناهجه -

أصوله - مصادره

الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

* الشعر وطوائفه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

في الدراسات النقدية

* في النقد الأدبي

الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة

* فصول في الشعر بنقده

الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة السادسة ٢٨٠ صفحة

* المدارس النحوية

الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة

* تجديد النحو

الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة

* تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

في مجموعة نواحي الفكر العربي

* ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

* المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

* المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

* الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة أقرأ

* العقاد

الطبعة الرابعة

* البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

* معى

الطبعة الثانية

* الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

١٩٨٧ / ٣٠١٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٩٠-٨	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للمقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره ، فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل .

وقضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .

To: www.al-mostafa.com